الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٣٩ — ٢ مارس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 139. | Lundi-2-3-1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٣٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ٢ مارس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

شباب العراق فى مصر

قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نَبَتْ على العروبة فقطعت الأسباب الموصولة ، وأيبست الأرحام المبلولة : تعالوا فانظروا كيف بَشَّتْ بالعراق بشاشة الألفة ، ورفَّت لبنيه رفيف القرابة ، وأشبلت عليهم إشبال الأمومة ! تعالوا فاسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفافَ النيـل فى أرض غير أرضهم ، وقوم غير قومهم ، و بيئة غير بيئتهم ؟ لقد كان إقبالهم على محطة القاهرة كإقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبال العافية ! نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا فى قلوب الميامين من رجال الوادى ، وهتفت الجموع الحاشـدة باسمى فؤاد وغازى ، وجرت الألسن الخاطبة بلفظى القرابة والوحـدة ، وتلاقت العواطف الظامئة على وِرْدى الإخاء والمودة . ودخـل الطلاب العراقيون فى غمار الألوف المتهللة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأمانى ، وترجمت اللغة ! ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم غبطة القاهرة وبهجة الأندية وحديث الصحف ، يظلون من مطالع النهار إلى مقطع الليل

غرق فى احتفا[illegible]ينة بين ترحيب يومض فى العيون ، وتسليم يفترّ فى ال[illegible] وإعجاب يدوّى فى الأكف ، وكرم يفيض على الم[illegible] ، ثم لا يسعفون كل مَشُوق لسعة الحركة ، ولا يجيبون كل داع لضيق المدة .

والحق أن الشباب العراقيين كانوا كما قال الدكتور محجوب : طاقة من شتيت الزهر النضير قدمتها بغداد إلى القاهرة فى العيد ! مثلوا العراق فى الرجولة والعزة ، ومثّله الأستاذ منير القاضى فى الوقار والنبل ، فكانوا بهذا المظهر الجميل دليل اليقين لمن يطيع فى أمتهم الشك ، وشاهد الاطمئنان لمن يعقد على نهضتهم الأمل !

* * *

كان مبعث الجفاء بين أقطار العرب انقطاع الأسباب وبُعد الشقة ؛ ثم غشيت كل سماء من سماواتها الزُّهر غمةٌ من أطماع الغرب ، حجبت عن العيون الضياء ، وعن النفوس الصفاء ، وعن العقول المعرفة ، فذهب القوم أشتاتاً يتلمس كل امرىء فى الظلام طريقه ! حتى إذا استيقظ فى الوجدان شعور العروبة ، وعاد فأشرق فى الأذهان نور الدين ، أبصرنا فإذا بيننا من بغى الإنسان حواجز تتقاصر عندها الخطى ، وتتناكر دونها المعارف !

أزيلوا قائم الحدود ، وجددوا دارس الطريق ، تتلاق الوجوه وتتعارف الأخوة ؛ واعملوا ما يعمل فى العراق رسول الوحدة ياسين ، وفى مصر أمثال الوزير محمد على ، والزعيم طلعت حرب ، تجدوا الاتحاد العربى جارفاً كدعوة محمد ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس !

هذه هى مصر الصحيحة يا شباب الرافدين ! لا يزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم ! إنها لم تركم ولم تروها لأنها فى جوف الحوت ! وها أنتم أولاء تسمعون حشرجتها الأليمة فى حلقه ، وستجيش بين معدته وأضراسه جَيَشان النسم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة كيونس ! حينئذ تتجه (ابنة الشمس) إلى مطلع الشمس ! وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان هناك مجدهم بالأمس ! وليس الشرق موطن الديانات والمدنيات بضنين ولا جديد .

إن الأرض لتُزَلْزَل فى كل مكان بالدخيل يا بَنِى (الهلال الخصيب) ! وإن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً من صحون المساجد الجامعة ! هل تذكرون ثورة بغداد فى جامع الحيدرخانة ؟ هل رأيتم غضبة دمشق فى الجامع الأموى ؟ هل سمعتم صرخة القدس فى الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجيباً لا يندُّ عن خاطر ولا يلتوى على ذهن ، ذلك أن المنارة التى يذكر عليها اسم الله ، لا تزال هى المكان الذى يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن المحراب الذى يقوم فيه الدين ، لا يزال هو الركن الذى يأوى إليه الحق ، وأن الإسلام الذى ألف شتيت البدو فى الأول ، هو النظام الذى يجمع شمل العرب فى الآخر !

* * *

لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة ، صافحونا بالأيدى ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالآذان ، فانمحت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكثيفة ، واستبان أن الخيال جانٍ على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العِيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع !

نعى البرق شاعر العراق الزهاوى والمصريون والعراقيون فى حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب فى نفوس الفريقين واحداً لا يختلف ؛ وقام كبير الأدباء فأبن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الأخوان بعاطفة واحدة وشعور مشترك ، لأن الزهاوى كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة ، فتتردد أصداؤها الموقظة فى ربوات بَرَدَى وخمائل النيل وسواحل المغرب ! وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لم تكن هذه الزورة ! وبهذه الزورة وأمثالها نتعارف ونتآلف ونتحد ! فتعالوا يا أخلاف المجد الفقيد وأسلاف المجد الوليد نتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة ! تعالوا نقرّ فى سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدى الأمانة ! ولكن قبل ذلك كله :

تعالوا نجدد دارس العهد بيننا   كلانا على هذا الجفاء ملوم

احمد حسن الزيات

أغنيـــــة

للأستاذ أحمد أمين

تعجبني أحياناً بعض الأغاني الشعبية ، إذ أراها تمثل روح الشعب وآماله وآلامه — وأراها أصدق في وصف الحياة المتنوعة مما يفعل أدباء اليوم ، فكل أغانيهم لا تمثل إلا عاطفة الحب البائس ، وما يتبعه من ألم ممض ، ولوعة مضنية ؛ أما الأغاني الشعبية ففيها الحب البائس ، والحب الباسم ، وفيها التغني بالبطولة ، والشكوى من الظلم

وأحياناً فيها فلسفة اجتماعية كالأغنية التي سأعرضها اليوم ؛ ومرماها تصوير الهيئة الاجتماعية في صورة الجسم الواحد تتعاون أعضاؤه لتحقيق المصلحة العامة — وهو معنى عرض له الفلاسفة والأدباء في الأمم المختلفة قديماً وحديثاً — فمثّله اليونان مرة باضراب أعضاء الجسم . قال القلب : لماذا أوزع الدم على سائر الأعضاء ولا ينالني أنا منه إلا قطرات ؟ فلأضربُ . وقالت المعدة : ولماذا أهضم أنا أيضاً الأكل كله وليس يصيبني منه إلا قليل ، أفما كان الأولى ألا أهضم إلا ما ينالني ؟ فلأضرب . وقالت الأسنان : ومالي أنا كالطاحون تطحن دائماً ولا ينالني من الغذاء إلا قدر السمسمة ؟ فلأضرب . وقالت الرجل : وأنا دائبة السعي يميناً وشمالا وليلا ونهاراً في جمع العيش وتحصيل القوت ، ثم حظي من كل هذا فتات الموائد ؟ فلأضرب . وقال كل عضو هذا القول أو شبهه ، فأضربت الأعضاء جميعاً ، فلا الرجل تسعى ، ولا اليد تحمل الغذاء إلى الفم ، ولا الأسنان تمضغ ، ولا المعدة تهضم ، ولا القلب يوزع

ثم بعد قليل شعرت المعدة بالجوع ولم تستطع الرجل المشي ولا اليد الحركة ، وأدركت كلها أنها سائرة إلى الفناء السريع ، فاجتمعت على عجل وقررت فض الأضراب إذ رأت أن كل عضو يعمل لنفسه ولغيره ، وأن غيره يعمل لنفسه ولغيره ، فالغرم بالغنم والربح على قدر الخسارة

ولحظ هذا المعنى شعراء العرب فقال أبو العلاء المعري فيه :

المرء كالنار تبدو عند مسقطها صغيرة ثم تخبو حين تحتدم

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وكل عضو لأمر ما يمارسه

لا تمشي للكف بل تمشي بك القدم

أما هذه الأغنية التي أشرت اليها فتمثل هذا المعنى من ناحية أخرى ظريفة ، وهي ارتباط الصناع وأرباب الأموال برباط وثيق ، لا يمكن أن يستغنى أحد عن أحد . وهاهي بعد حذف ديباجتها :

« وحصاني في الخزانة ، والخزانة «عاوزة» سلم ، والسلم عند النجار ، والنجار عاوز مسمار ، والمسمار عند الحداد ، والحداد عاوز بيضة ، والبيضة في بطن الفرخة ، والفرخة عاوزة قمحة ، والقمحة عند القماح ، والقماح عاوز فلوس ، والفلوس عند الصريف ، والصريف عاوز عصافير ، والعصافير في الجنة ، والجنة عاوزه حنّا » الخ ...

أغنية لطيفة حقاً ، لا يزال أطفالنا إلى الآن يتغنون بها بتوقيعهم الظريف ، وصوتهم الشجي ، وهم إذ ينشدونها لم يدروا أنهم يتغنون بفلسفة عالية ، وفكرة سامية

قد يلاحظ عليها أن الربط في بعضها محكم كحاجة السلم إلى النجار والنجار إلى المسمار ، وبعضها غير محكم كحاجة الحداد إلى البيضة ، وحاجة الصريف إلى العصافير ، ولكن أظن أن تحكيم المنطق الدقيق الحاد في الأدب كالشعر والأغاني وسائر الفنون مجاوزة للحد ، فالأغنية ظريفة لطيفة رغم المنطق

ومن أسباب جمالها هذا النوع البديع الذي يصح أن أسميه « جمال الدوران » أو جمال التسلسل ، مثل قولهم « لا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل »

وقولهم : « الحجر يكسر الزجاج ، والحديد يكسر الحجر ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفئ النار ، والريح تلعب بالماء ، والانسان يتقي الريح ، والخوف يغلب الانسان ، والخمر تزيل الخوف ، والنوم يغلب الخمر ، والموت يغلب النوم »

ومثل قولهم : « العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً » الخ

***

وبعد فما تاريخ هذه الأغنية ومن واضعها ؟ لا بد أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً بعيد النظر . ومما يؤسف له أن هذه الأغاني

والأز... ...واويل لم يعن بها عناية الأدب الأرستقراطى ، فبينما ...ء والأدباء بنسبة بيت الشعر إلى قائله ، والقصيدة إلى ...سها ، ويحتدم بينهم القتال على ذلك ، إذا بنا لا نجد هذه العناية ولا بعضها فى الأغانى والأزجال الشعبية ، وهذا نوع مما أصاب الأدب الشعبي من الظلم . وكم أصابه من أنواع ! وها هى الأغانى التى تخترع فى عصرنا نجدها على الأفواه ونستعذبها ، وتهش لها نفوسنا ، ولا نكلف أنفسنا مئونة البحث عن منشئها

ولكن من حسن حظ هذه الأغنية ، أو من حسن حظنا نحن ، أننا نجد ظلا لتاريخها ، فقد ذكرها الجبرتى فى تاريخه فى حوادث سنة ١١٤٣ هجرية ، فيكون عمرها أكثر من قرنين وظلت الأجيال تتعاقبها الى يومنا

ويظهر من كلام الجبرتى أن واضعها عالم كبير جليل من أكابر علماء الأزهر فى القرن الثانى عشر ، هو الشيخ الحفناوى أو الحفنى ؛ كان سيد الأزهر فى أيامه ، له حلقات الدروس الحافلة بنوابغ الطلبة ، يقرأ فيها أعوص الكتب وأصعبها ، كجمع الجوامع والأشمونى وحاشية السعد ؛ وله التآليف الكثيرة فى البلاغة والميراث والجبر والمقابلة ، كما كان بيته ساحة كرم يغشاه أعيان مصر وعلماؤها وأدباؤها ، ويلجأ اليه الفقراء وذوو الحاجات ؛ وكان راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الأردب ، وطاحون بيته دائرة ليل نهار ، ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون ، الى هيبة ووقار ، حتى يهاب العلماء سؤاله لجلاله

وهو مع هذا كله ظريف أديب ، سمع تلميذا له يوماً يقول :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار

والعيش الأبيض تحبه ؟ قلت والكشكار

فضحك الشيخ وقال أنا لا أحبه بالزيت الحار ، وإنما أحبه بالسمن ، ثم قال :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالمسلى والبيض مشوى تحبه ؟ قلت والمقلى

وله المواويل الظريفة كقوله :

بحياة ياليل قوامك وصوم الحرّ

تحجز لنا الفجر دا فوت الرفاقه حرّ

لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجرّ

أزداد لوعه ولا عمرى بقيت انسرّ

إلى غير ذلك . فيحدث تلميذه أن الشيخ الحفني قال له يوماً « أحدثك حدوته ، بالزيت ملتوته ، حلفت ما آكلها ، حتى يجى التاجر ، والتاجر فوق السطوح ، والسطوح عاوز سلم الخ » لحكاية التلميذ ولم يكن سمعها من قبل وروايته لها عن شيخه ترجح الظن أنها من عمل الشيخ الحفنى

وقد زاد الشيخ على ذلك فشرح الأغنية على طريقة الصوفية ففسر التاجر بالمرشد الكامل والمربى الواصل ، والتاجر فوق السطوح فى مستو عال ، والسطوح لا يمكن صعوده إلا بمعراج الخ وقد كان للشيخ جانب آخر صوفى عظيم

فالأشمونى وجمع الجوامع ، والحواشى والتقارير ، كلها لم تمنع الشيخ العالم الأزهرى الجليل من أن يكون أديباً وزجالا ظريفاً يضع الأغانى والمواويل يتغنى بها الشعب . وهذا يذكرنى بما سمعت عن فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن قراعه المفتى الأسبق — مد الله فى عمره — من أنه واضع الدور المشهور : « الله يصون دولة حسنك »

فمن لنا بعلمائنا الأزهريين اليوم يشرفون على الأدب كما يشرفون على الدين ، ويتعرفون حياة الناس الاجتماعية ، ومناحيهم الأدبية ، ويضعون الأناشيد الظريفة ، والأغانى اللطيفة ، ويكونون عنوان الدين وعنوان الظرف ، يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا

أحمد أمين

مواكب سلاطين مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

إن أفئدتنا المتعلقة بعصرنا العزيزة تتوق إلى كل ما يرتبط بهذا الوطن المجيد، فكما أن نسيمها حبيب وحرها حبيب؛ وكما أن سماءها تأخذ بالألباب في صفائها، وتنعش فيها الأمل بسحابها ومطرها؛ وكما أن حاضرها نزهة الأعين وبهجة الأنفس، كذلك تجد النفس في ماضيها مسارح محبوبة للخيال والفكر. فلنعد إلى عصر من تلك العصور الماضية المجيدة، ولنتجرد من عصرنا الحاضر إلى حين لنفرغ إلى استجلاء بعض لذات تلك الأيام الغابرة، ولنشارك بالفكر مواطنينا الأعزاء الذين ملأوا أيامهم جلالاً وبهجة

لنعد إلى القرن الثالث عشر، ولنتخط إليه ستمائة عام على أجنحة الخيال، ولنقف حول ركاب ملوكنا الأمجاد الذين كانوا زينة العصر وحماة الديار عند ذلك، ولنشارك مواطنينا من الأجداد الذين كانوا يصطفون على جوانب الطرق وقلوبهم خفاقة ونفوسهم مملوءة بالاجلال الممزوج بالحب والعطف لهؤلاء الحماة، ولننظر إلى السلطان العظيم وقد أقبل في موكبه والناس يضجون بالدعاء له فيتلقونه بأحسن الاستقبال. حتى إذا ما صار منهم على كثب رفعوا الأكف وقرأوا الفاتحة ودعوا له بالنصر والقوة على حماية البلاد، ولنشارك مواطنينا في ذلك الدعاء فلقد كان أولئك السلاطين تفيض قلوبهم بخير ما تفيض به قلوب الملوك من حب لخير الرعية وتفان في سبيل مصلحتها العامة.

كان أحد هؤلاء السلاطين الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وكان يلقب بالعلائي البندقداري نسبة إلى الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري أحد أمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو الذي اشتراه عند ما كان مملوكا صغيراً ثم آل ملكه إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ولهذا يلقبه التاريخ أيضاً بالصالحي النجمي. وقد تعلم وترقى في الوظائف على النظام البديع الذي كان يسير عليه أمراء ذلك العصر في تعليم مماليكهم وترقيتهم حتى صار أميراً قائداً، وذلك لما أظهره من الشجاعة في الحرب ولا سيما في موقعة المنصورة في أيام الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب، وهي الموقعة التي هزم فيها الفرنج وأخذ ملكهم لويس التاسع أسيراً، ومازال حتى صار (أتابكا) للعساكر أي قائداً عاماً لهم

ثم استولى على الملك، فكان الثالث من سلاطين الأتراك الذين جرى العرف بتسميتهم سلاطين المماليك

وكانت مصر في أيامهم تحيط بها عيون الأعداء من كل الجهات، فبينا كان أهل أوربا يدبرون الخطط ويجندون الجيوش الجرارة لغزوها، كان أحفاد جنكيز خان ملوك التتار العظام يدفقون جموعهم نحو الشام بعد أن اجتاحوا بلاد العراق وخربوها وأسالوا فيها الدماء أنهاراً، فكان العصر عصر حرب ودفاع، وكانت الروح الغالبة روح الحرب والدفاع، وكان واجب الأمة الحرب والدفاع، وكان بيبرس من خير من مثل تلك الروح واستمد بكل قوة للحرب والدفاع، فكانت كل مظاهره مصبوغة بصبغة النضال والكفاح. كان الخليفة العباسي قد جاء الى مصر مطروداً مشرداً بعد أن نكب التتار بلاد العراق فجاء الى مصر يطلب فيها الأمن ويلتمس الحماية من سلطانها الأعظم بيبرس، وأحب أن يكافىء ذلك السلطان على حمايته ومساعدته مقدماً، فقلده السلطنة المصرية بصفته الحاكم الشرعي للدولة الاسلامية، وبذلك عمل على تثبيت مركزه وجعله حاكما شرعيا الى جانب كونه حاكما بالسيف. فأمر السلطان فضربت لهذه المناسبة خيمة كبيرة في المطرية، وجلس السلطان على كرسي عظيم في صدرها، وكان طويل القامة مليح الشكل أبيض الوجه مستدير اللحية، وقد اختلط سوادها بالبياض يكاد يغلب عليه. وقد اصطف الأمراء حوله بحسب مراتبهم، لا يلتفت أحد منهم الى يمين ولا الى يسار، ولا يكلم أحد من الى جواره ولا يشير اليه، فلقد كان هذا خروجا على الآداب المقررة في المجلس السلطاني، ولم تكن ملابس هؤلاء الأمراء قد بلغت بعد ما بلغته من الزينة والزركشة في أيام السلاطين الذين أتوا فيما بعد كالسلطان قلاوون وابنه الملك الناصر محمد، وذلك لأن بيبرس كان لا يجد من فراغه متسعاً للتفكير في غير عدة الجهاد والنضال. فلم تكن

ملابس الأمراء غير أقبية (أو جبب) بيضاء واسعة ضيقة الأ... بمناطق ساذجة لا ذهب فيها ولا جواهر، بل كانت من القطن المصبوغ، وكانت أخفافهم من جلد بلغاري أسود، وفوق تلك الأخفاف خف ثان اسمه السقمان، وكان فوق الأقبية أو الجبب كمران فيهما حلق وأبزيم ومعلق فيهما صوالق (أوجيبوب) جلد كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة من القمح، ويغرز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع، وكانت شعورهم مضفورة، وضفائرهم مدلاة في كيس حرير أحمر أو أصفر، وفوق رؤوسهم قلانس صفراء مضربة تضريباً عريضاً

وجلس عن يمين السلطان الخليفة والقضاة من المذاهب الأربعة، فان بيبرس جعل لكل مذهب قاضياً كبيراً بعد أن كانت ولاية القضاة لقاض واحد من علماء المذهب الشافعي. ثم جلس عن يمين القضاة بعض موظفي الدولة مثل وكيل بيت المال أو (وزير المالية كما نسميه الآن)، ثم ناظر الحسبة أو (هو محافظ القاهرة)، وكلاهما من القضاة وأرباب القلم. وجلس عن يساره الوزير ثم كاتب السر أو (الأمين الأول)، وجلس أمامه ناظر الجيش وجماعة من الكتاب الكبار أو كما كانوا يسمونهم الموقعين

ووقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من الأمراء الكبار وهم رؤساء الأمراء والقواد في الجيوش، وجلس الى اليمين واليسار على بعد نحو ثمانية أمتار من السلطان ذوو السن من الأمراء القواد وهم أمراء المشورة في الدولة. وجلس بعد ذلك من هم أدنى منهم مرتبة من أكابر الأمراء، ثم وقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان من هم دونهم من الأمراء والقواد بحسب درجاتهم، فكان أقربهم من السلطان أمراء المئين وهم مقدمو الألوف، وكان كل منهم أميراً على مائة فارس، وقد يزيد عدد فوارسهم عشرة أو عشرين فوق المائة؛ وكان يليهم أمراء الطبلخاناه، وكان كل منهم أميرا على أربعين فارساً، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى السبعين؛ وكان بعد هؤلاء جميعاً أمراء العشرات ولكل منهم الامارة على عشرة فرسان، وقد يزيد عدد فرسانهم الى العشرين

ونصب منبر وصعد عليه كاتب السر الشريف، فقرأ على الأمراء في ذلك الحشد الحافل كتاب الخليفة العباسي أحمد المستنصر بالله الذي لجأ إلى مصر وأحسن السلطان استقباله، وفيه ثناء طيب من الخليفة على السلطان العظيم فأصبح بذلك ملكا على البلاد بحق الاستيلاء والسيف، وبحق تقليد خليفة المسلمين الذي كان العالم الاسلامي يرى فيه رمز الحق الشرعي للحكم. وأصبح سلطاناً على مصر والشام وكل ما يفتح من بلاد الأعداء

ثم حملت إلى السلطان خلعة الخليفة، فلبسها وهي جبة سوداء، وعمامة بنفسجية، وطوق من ذهب، وقلد بسيف عربي. فلما انتهى الاحتفال ركب السلطان بالخلعة والطوق والأمراء حوله وأمامه حسب ترتيبهم، وحمل الصاحب بهاء الدين محمد بن علي ابن حنا تقليد الخليفة، على رأسه وسار قدام السلطان. ثم سار الموكب حتى دخل القاهرة من باب النصر ومر في الشارع الأكبر من المدينة، والسلطان في خلعته الجديدة راكب على فرس عربي عليه كسوة بديعة من الحرير الأصفر، وقد ركب إلى جواره أحد أمراء المئين راكباً على فرس يحمل المظلة وهي حبرة من الأطلس الأصفر المزركش بالذهب، من أعلاها قبة من الحرير نفسه، وفوقها طائر من الفضة المذهبة

وتلقت الجموع الزاخرة من أهل القاهرة ذلك الموكب بالتهليل والطرب؛ وكان السلطان كلما مر بجماعة ضجوا بالدعاء له بالنصر والفتح وقرأوا الفاتحة تبركا وتيمناً؛ ومازال ذلك الموكب حتى بلغ القلعة فلم يبق ركن من أركان القاهرة لم يهتز لرؤيته والاشتراك في الحفاوة به

والآن فلنخرج مرة أخرى لنشارك أجدادنا أهل القاهرة في التمتع برؤية موكب آخر سائرين في ركاب السلطان إلى ميدان بجوار القاهرة كان ملوك مصر إذ ذاك يقصدونه للرياضة والتنزه ويلعبون فيه لعبتهم المشهورة وهي (الكرة)؛ وكانوا يخرجون لذلك إلى أحد ميدانين: الأول الميدان الناصري الكبير، والثاني ميدان سرياقوس. وكان الخروج إلى كل من هذين الميدانين في أوقات معينة من السنة، فالركوب إلى الميدان الكبير الناصري كان يقع في شهري سبتمبر وأكتوبر؛ وذلك الميدان على ضفة النيل في جهة بستان الخشاب فيما بين القاهرة ومصر القديمة. وكان الخروج إليه في كل يوم سبت من الشهرين المذكورين.

وقد كان بودي لو استطعت في هذه الكلمة أن أصف مواكب خروج السلطان إلى كل من هذين الميدانين ، ولكنني أكتفي بوصف موكب واحد وهو موكب الخروج إلى الميدان الكبير الناصري

خرج السلطان الملك الناصر صباح أول يوم السبت بعد وفاء النيل بادئاً موسم لعب الكرة والصولجان في ذلك الميدان الفسيح ؛ وكان خروجه في الصباح ، ولكن الشمس كانت قد بسطت سلطانها على الأحياء فبدأ حرها يشتد وتكاثر الناس وازدحموا على الطريق ليروا السلطان وهو يخرج سائراً نحو الغرب إلى قناطر السباع القائمة فوق الخليج ، وذلك في موضع ميدان السيدة زينب الآن ، ومن هناك سار نحو النيل إلى الميدان . وكان في أول الموكب فارسان يلبسان ثياباً من الحرير الأصفر وعلى رأس كل منهما كوفية من الذهب على هيئة طاسات الحرب ، وكانا يركبان فرسين أبيضين بحلية بديعة من الذهب ، وكان على كل من الفرسين كساء من الحرير الأصفر المزركش بالذهب يغطى من تحت أذنيه إلى موضع السرج . فلما مر هذان الفارسان أقبل في أثرهما السلطان وهو راكب على فرس عربي أصيل هيئته وكسوته مثل هيئة فرسى الفارسين المتقدمى الذكر لا فرق بينه وبينهما ، حتى كان الناظر إلى الفرسين المتقدمين يظنهما قد أعدا لركوب السلطان نفسه ؛ وكان أمام فرس السلطان غاشية السرج يحملها بعض أمراء المماليك الخواص ، وهذه الغاشية عبارة عن جلد مزركش بالذهب ليُغطى به سرج السلطان إذا نزل ، وكان حامل تلك الغاشية يحركها زهواً وافتخاراً ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى جانب حامل هذه الغاشية فارس آخر يضرب على شُبابة ، وهي آلة موسيقية لا يقصد بنغمها الاطراب ، بل يقصد بها إيقاع المهابة في النفوس

وكان فوق رأس السلطان العصائب السلطانية ، وهي من الحرير الأصفر المزركش بالذهب منقوشة باسمه وألقابه . وكانت العادة أن تحمل هذه العصائب فوق رأس السلطان عند الركوب إلى هذا الميدان خاصة وفي يوم العيد ، وعند ما يدخل إلى القاهرة عائداً من السفر أو إلى مدينة من مدن الشام

ولم يكن في هذا اليوم يستظل بالمظلة ، فان رفعها كان خاصاً بأيام العيد أو عند دخول المدينة أو في المواكب التقليدية الكبرى

وجاء خلف السلطان جماعة الأمراء أولهم الشاة يحفون به على هيئة دائرة ، وهم الطبردارية الذين يحملون الأطبار المشهورة ولباسها السيوف المموجة التي يسميها الفرنج (السابر) ، وكانوا في العادة من كبار الأكراد ، ويليهم بعد ذلك الأمراء الفرسان يسيرون بحسب مراتبهم : فنائب السلطنة ، ثم الوزير وأرباب الوظائف الكبرى ، ثم أمراء المئين مقدمو الألوف ، ثم الطبلخانات ، ثم أمراء العشرات ، ثم المماليك

فاذا ما انتهى الركب إلى الميدان واستقر مجلس السلطان هنيهة في ظلال الأشجار الوارفة التي حول الميدان أمر ببدء اللعب واشترك هو مع الأمراء الكبار فلعبوا الكرة بالصوالج وهم ركوب على الخيل ، وانتهزوا فرصة اللعب فاظهروا من المهارة في ركوب الخيل والتحرك فوقها أثناء جريها ما يدهش الألباب

فاذا انتهى اللعب في ذلك اليوم دعا السلطان الإثنين اللذين برزا في اللعب من الأمراء وأنعم عليهما بحوائص الذهب وهي مناطق ثمينة من الذهب يبلغ ثمن الواحدة أحياناً مئتي دينار أو يزيد ؛ وكان هذا التقليد مخصوصاً لكبار الأمراء المقدمين ، فكان السلطان بذلك ينعم بالحوائص على كل الأمراء المقدمين تدريجاً حتى يتم انعامه على الجميع مرة في مدى ثلاث سنوات أو أربع

وبعد أن ينتهي من الانعام بالحوائص يدعو البرزين من كل طبقات الأمراء ويهدى اليهم الخيول الجياد ، فكان يعطى الأمراء الكبار من أمراء المئين والطبلخانات خيولاً مسرجة ملجمة ، ثم يختار بعض أمراء العشرات فيجعل لهم حظاً من ذلك الانعام أيضاً ، ويزيد عطاؤه للمقربين من كبار أمراء حرسه الخاص فيجود عليهم بالجياد عشرات لا آحادا

فلقد كان خروج السلطان إلى ذلك الميدان أحد موسمين للانعام بالخيول على الأمراء ، وكان الموسم الآخر عند خروجه إلى مرابط خيله في الربيع

وبعد ، أفلم تكن تلك التقاليد المقررة جديرة بأن نذكرها ونحتفظ بذكراها ليكون جيلنا الحاضر مرتبطاً بالأجيال الماضية ارتباط البناء بالأساس ؟

محمد فريد أبو حديد

جوع الروحانى

لأستاذ جليل ينم عليه أسلوبه

أتحفنا الأستاذ المازنى منذ أيام بمقال ممتع « فى الحب » ، ثم أعقبه بمقال آخر تحدث فيه عن « الحب الأفلاطونى » و « الوفاء فى الحب »

فقال عن الحب إنه « ضرب من الجوع ، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ اليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع »

وقال عن الحب الأفلاطونى والوفاء : إنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة ، وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام فى أطباقه على السفرة ، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها ، والتمتع بابتسامتها ، ورشاقة قدها ، وحسن جلستها ؛ والذى يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوى منه إلى المرأة »

وقال الأستاذ عن الوفاء : « أما الوفاء فأكرم به وأنعم ! ولكن أين فى دنيانا من يصبر على طعام واحد وفى وسعه ألا يفعل ؟ وإنى أسأل القارئ وأعفيه من الجواب الملنى : أى رجل لم ينقض عهداً بالوفاء ؟ ... والمرأة كالرجل ، وشأنها كشأنه ، وكذاب من يقول — وكذابة من تدعى — غير ذلك ، ولست أدعو إلى شىء . وحاشاى أن أفعل ، ولكنى أصف واقعاً وأقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة »

وأورد الأستاذ فى هذا المعنى بيتين من الشعر قالهما قبل أن يهجر القريض — مأسوفا عليه من مقدرى فضله :

يا عقيدى طامن الله حشاك   لن ترانى شاكيا وهى حبالك
أين من «طينتنا» أين الفكاك   أنت انسان على فرط جمالك

***

وإنى مع فرط احترامى لآراء الأستاذ وإعجابى بها دائماً ، بل وعلى الرغم من إعجابى بأفكاره هذه التى عرضها فى مقاله الأخير ، أقول إنى أحسست بأنى شخصياً قد سُببت . وكلما مر نظرى على قوله : « كذاب من يقول ، وكذابة من تدعى » انتفضت وأحسست بالدم يصعد إلى رأسى شأن من يكون مقبلا على شجار والعياذ بالله ! وكلما أعدت البصر فى قوله انه « يقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن يفعل كذا وينتحل كذا » ، أحسست كأنما تتحشرج فى حلقى عبارة : « اختش يا رجل ! » أو : « احفظ مقامك يا أخينا أنت وإلا . . . . » أو غير ذلك من العبارات التى تسبق التماسك عادة بين الفريقين !

ذلك بأنى أنا أومن بالحب الأفلاطونى ، وأومن بالوفاء ؛ وإن كان الأستاذ قد قال فى معرض الكفر بهذين المذهبين : « وأنا لا أدعو إلى شىء وحاشاى أن أفعل » ؛ فهأنذا أقول بأنى أدعو إلى الايمان بالحب الأفلاطونى وبالوفاء ، وقصاراى أن أفعل !

***

ولابد أولا بأن أقول مع الأستاذ إن الحب اشتهاء ؛ فالى هنا نحن متفقان . ولكن يبدو لى مع الأسف أن هذا هو كل ما بيننا من توافق ، فانه يقول بعد ذلك رأساً إن الحب تنبيه للجسم ليعمل على حفظ النوع . بينما أنا أتابع الحديث بأن الجوع أنواع ، وأن الأصل فيه جوع المعدة إلى الطعام ، وأن لكل حاسة من حواس الجسم نوعا من الجوع تكابده وتعمل على إشباعه ، وأن الأذن مثلا تجوع وغذاؤها الموسيقى ؛ ويحس الجائع فى هذه الحالة باشتهاء مُلِح إلى استماع الألحان . والعين كذلك تجوع ولكنها تجوع إلى الجمال ، وقد يبلغ من جوعها أن تضطرب أعصاب صاحبها وتفسد عليه شؤونه إلى أن يمن الله عليه بصورة جميلة تقر لها عينه وتطمئن بها نفسه ، مع أنه لا يبغى من هذه الصورة أكثر من أن يجلو بها عينيه . وأجهزة الجسم جميعها تجوع . ولعل الحب الذى كتب عنه الأستاذ هو جوع الجهاز التناسلى ، وهو الجوع إلى المرأة وليس الجوع إلى الجمال ، فان جميع (الأعراض) البادية فى ذلك المقال (تشخص) هذه الحالة

وإذا كنت موفقاً فى التعبير فانى أعتقد أن هذا القول فيه ما يكفى لفتح الطريق أمام الحب الأفلاطونى الذى سد الأستاذ فى وجهه الأبواب ووقف من دونها يقول : « أين الكذاب الذى يقول إن شيئاً يقوم وراء هذا الباب ؟ ! وأنت أيها المكابر يا من تريد أن تنتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة ! يا منافق ..

يا بن ا . . .»[1] إلى آخر تلك الثورة التي لا سبيل لي مع الأسف إلى اتقاء أذاها غير أن أنشر هذه الكلمة بدون توقيع ، وأترك الفضل بعد ذلك في انتحالها لمن شاء وأمري إلى الله !

* * *

إن الحب الأفلاطوني نوع من المغناطيسية الآدمية . وكل متعة الحب فيه أن يكون قريباً من حبيبه . لأن حبه هو حب الروح التي تعمل على حفظ « المزاج » لا حب اللحم والأجهزة السفلية التي تعمل على حفظ « النوع »

ولعل من أبرع الأمثلة على هـذه الحالة قول قيس في بعض أشعاره :

تعلقت ليلى وهي ذات تمائم ولم يبد للنظار من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أننا صغيرين لم نكبر ولم تكبر البهم

فأنت ترى أن هذا الصبي المحب كان محباً قبل أن يتنبه فيه جهازه الجنسي ، ولم يكن يصلح مطلقاً للمحافظة على النوع ، بل إن ليلاه لم يكن قد تفتح في جسمها شيء من منبهات ذلك الجهاز . أفلست تسمعه إذ يقول : ولم يبد للنظار من ثديها حجم !

* * *

وأنا إذ أقول بوجود الحب الأفلاطوني لا أنكر حب (النوع) ولا أعيبه — وحاشاي أنا أيضاً أن أفعل — بل إني لأقول بامكان اجتماعهما في نفس واحدة ، ولكن الذي ينبغي هنا أن أثبت وجود هذا الحب الأفلاطوني الروحاني البريء الذي أحسه أحياناً ، والذي يهمني جداً أن أطمئن غيري على وجوده ليتعلم كيف يحسه هو الآخر عند اللزوم . ذلك لأنه ضرورة من ضرورات الرجل المهـذب الذي يريد أن يشعر أحياناً أنه ليس حيواناً دائماً ، وأنه قد يسمو في بعض الأوقات فوق اعتبارات هذه المادة المظلمة التي هي جسمه وأجهزته الدنيا

* * *

يروى عن (المهدى) أنه لمـا هرب من المأمون ذهب الى عمته فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك ، وكانت هذه غاية في الحسن فأحبها المهدى ـ أعني على طريقتي أنا لا على طريقة الأستاذ المازني ـ فكره أن يحدثها حـديث (النوع) ، وأنه قد حصل لجسمه تنبيه ليعمل على بقاء السلالة البشرية في دولة أمير المؤمنين ، ولـكنه تسامى بحبه الى الفناء ، فبينما هي قائمة على رأسه ذات يوم تغنّى بهذين البيتين :

يا غزالا لي اليـه شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء الضـ ـيف إحسان اليه

فلما انصرفت الجارية من عنـده أخبرت سيدتها بما سمعت من مولاها ، فوهبتها له ؛ فلما رجعت الجارية اليه بعد ذلك أعاد غناءه ، فأكبت الجارية عليه ، فدفعها عن نفسه قائلا : كُفي ! ما أنا بخائن ! فقالت له إن سـيدتي وهبتني لك ، فقبلها قائلا : أما الآن فنعم !

* * *

هذه هي كلمتي عن الحب الأفلاطوني وعن الوفاء . وأرى أن القول بأن (طينة) الانسان لا تتفق مع هـذا الخلق العظيم كما يقرر الأستاذ في شعره إنما هو محاجّة بالأساطير ، وتدليل بشيء لم يقل أحـد إن له قوة الدليل . ونظيره أن يتقدم الشاهد الى المحـكمة مثلا ليقول إنه سمع (بالاشاعة) أن فلانا قتل فلانا ، فان كان مثل هذا الشاهد يجـد المحـكمة التي تقيم لشهادته وزنا ، فـسوف يجد حديث (طينتنا) من يستمع له !

* * *

وبعد . فما هي مهمة الـكاتب الاجتماعي ؟ أهي أن يقرر الأمر الواقع أمام الأشهاد الذين يشهدونه ، فاذا فرغ من ذلك انصرف عنهم يقنع نفسه بأنه أدى رسالته ؟ أم هي أن يتسامى بقرائه الى المُثل العليا التي تملأ أحلامه وتتجسم في تفكيره حتى ليعتقد فعلا بوجودها ولو لم تكن موجودة ؛ فيبشر لها في كتاباته ، ويصبح بذلك أهلا لحمل هذا اللقب الـكبير .

لقد قال فولتير : « إن الله لو لم يكن موجوداً لوجب على الناس أن يوجـدوه » ، والمعنى أن الناس لا تستقيم لهم حال إلا على أساس أن الله موجود ، وأنه من ورائهم محيط ، يجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته . وهذا ما يصح أن نقوله الآن عن الحب الأفلاطوني وعن الوفاء ، فان شيئاً من هذا إن لم يكن موجوداً لوجب علينا أن نوجده

* * *

(البقية في ذيل الصفحة التالية)

(١) الكلمة الأخيرة لم ترد طبعاً في مقال الأستاذ الفاضـل ولكن سياق الكلام اقتضاها فاثبتناها

إن المغريات المادية أصبحت تحيط بالانسان من كل جانب ، وهي تعمل دائبة على أن تعلق بأقدامه وتهوي به في القرار . فما لم يكن له نصيب من تلك المثل العليا ليحتفظ له بمستواه الآدمي العالي ينحط الى الدرك الأسفل الحيواني

فالافلاطونية والحالة هذه مزاج لابد منه للمذهب المادي الذي يطغى الآن على المجتمع ، ويكاد يوقعه في شر أعماله . فمن لهؤلاء الناس باليد التي تنتشلهم مما هم فيه إن لم يجدوها عند الأستاذ المازني — وأضرابه — وهم كما يحس الأستاذ نفسه قليلون ؟

«أفلاطوني»

حوادث الشرق الأقصى

الصراع بين اليابان وأوربا حول سيادة الصين وآسيا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يضطرم الشرق الأقصى كما تضطرم أوربا ويضطرم شرق إفريقية بحوادث خطيرة سياسية وعسكرية ؛ وتتخذ هذه الحوادث لأول وهلة صبغة محلية ، وتبدو متفرقة لا تربطها رابطة عامة ؛ ولكن هذه النظرة السطحية لا تعبر عن الحقيقة المستترة ؛ ذلك أن هذه الحوادث الخطيرة التي تجوزها القارات الثلاث تربطها جميعاً عوامل وظروف مشتركة ؛ فالحرب الايطالية في شرق افريقية هي نتيجة لتطورات السياسة الاستعمارية الأوربية ، وتوغل اليابان في الأراضي الصينية هو نفثة من نفثات الصراع بين الجنس الأصفر والاستعمار الغربي ، ونتيجة لتطورات السياسة الأوربية العامة ، وانشغال أوربا بمعاركها السياسية الداخلية ، بل إن هذه الحوادث التي تقع في أماكن وأقطار متباعدة تكون في الواقع وحدة متماسكة الأطراف ، فهي جميعاً ثمرة تلك الثورة العميقة الجامحة التي تجيش بها السياسة الدولية منذ بضعة أعوام ، والتي تسفر عن نتائجها الخطيرة تباعاً في سلسلة من الحوادث متصلة الحلقات برغم تباعدها وتباينها

وفي الشرق الأقصى في سهول الصين الشاسعة ، تضطرم بين أوربا وآسيا معركة هائلة ، ربما كانت حاسمة في مصاير الجنس الأصفر والاستعمار الأوربي ؛ فاليابان التي هي اليوم زعيمة الجنس الأصفر بلا منازع ، تتوغل في أقطار الصين الشاسعة تباعاً غير مكترثة بأية مقاومة محلية أو خارجية ؛ وقد كانت الصين قبل الفورة اليابانية الأخيرة تعتبر دائماً ميداناً خصباً للاستعمار الغربي ؛ ولا تزال الدول الأوربية الكبرى تبسط نفوذها الاقتصادي على مناطق غنية شاسعة في شرق الصين وجنوبها ، وهذه الدول تنظر اليوم إلى مراكزها في الصين بعين التوجس والجزع ؛ بيد أن المعركة الكبرى تنشب في الحقيقة في شمال الصين الشرقي حيث تلتقي اليابان وروسيا وهما الدولتان الخالدتان اللتان يتمثل في صراعهما اليوم صراع الجنسين الأصفر والأبيض ؛ وقد وقعت أخيراً في شمال الصين حوادث ومعارك خطيرة تؤذن بأن هذا الصراع يتخذ اليوم صورة حاسمة ؛ فاليابان التي غزت منشوريا واحتلتها منذ سنة ١٩٣١ ، وأقامت فيها امبراطورية صورية باسم منشوكيو ، تتقدم اليوم في الصين صوب الجنوب وصوب الشرق . ونظرة سريعة إلى خريطة الصين ترينا إلى أي حد وصل التوغل الياباني في الصين الوسطى حتى شمل اليوم مقاطعات برمتها في شهيلي وشاهار ، وتمدى السور الكبير إلى حدود بكين عاصمة الصين القديمة ؛ وقد استطاعت اليابان أخيراً بحركة ضغط عسكرية وسياسية قامت بها أن ترغم الحكومة الوطنية الصينية (حكومة نانكين) على الموافقة على إقامة نظام سياسي واداري خاص في بعض المناطق الوسطى بحيث تخرج عن نفوذ الحكومة الوطنية وتقع تحت نفوذ السلطات اليابانية ؛ بيد أن اليابان لا تلقى أعظم مقاومة في هذه النقطة من الصين ، بل يلوح لنا أن الصين ذاتها قد أخذت تذعن أخيراً للأمر الواقع ، وترى التقدم الياباني أمراً لا مندوحة عنه ولا سبيل إلى رده ؛ وترى الحكومة الوطنية وعلى رأسها الجنرال شانج كاي شك ، أن تطور مصاير الصين على هذا النحو خير من بقائها فريسة لمشاريع الاستعمار الغربي ؛ أولاً لأن الصين لا تستطيع مقاومة اليابان ، وثانياً لأنها تنشد السلام الداخلي ، وتطمح إلى إلغاء المعاهدات الأجنبية التي استطاعت الدول بمقتضاها أن تتوغل في شؤونها ومرافقها ، وكذلك إلى استعادة سلطانها ونفوذها في منغوليا والتركستان الصينية ، حيث يسود النفوذ الروسي ، والتبت

حيث يسود النفوذ البريطاني ، ولا تستطيع الصين أن تطمح إلى تحقيق هذه الآمال ما لم تعتمد على معاونة حليف قوى كاليابان ، هذا فضلا عن أن هناك من الروابط الجنسية والاجتماعية بين اليابان والصين ما يخفف وقع النفوذ الياباني ، ويحمل الشعب الصيني على تفضيله على أى نفوذ أجنبي آخر

وإنما يضطرم الصراع الحقيقي في شمال الصين بين اليابان وروسيا . وقد كانت الحرب اليابانية الروسية في سنة ١٩٠٤ عنواناً للصراع بين الجنس الأصفر والجنس الأبيض ، وكانت هزيمة روسيا في تلك الحرب فاتحة النصر الحقيقي للجنس الأصفر ومثاراً لمخاوف أوربا والاستعمار الغربي في آسيا ؛ ذلك لأنه لأول مرة في التاريخ تنتصر دولة اسيوية لم تنفض عنها بعد غمر الماضي المظلم على دولة أوربية عظمى ، وترغم أوربا على الاعتراف بتفوقها العسكري والسياسي ؛ بيد أن روسيا استطاعت رغم هزيمتها أن تحتفظ بمعظم أملاكها ومناطق نفوذها في الصين ؛ ومع أن اليابان خرجت من تلك الحرب بمغانم استعمارية كبيرة منها استيلاؤها على بورت أرثر ، ونصف جزيرة سخالين ، والسكة الحديدية الشرقية ، وتوطد نفوذها في كوريا التي غدت فيما بعد مقاطعة يابانية ، فانها لم تفتأ منذ انتصارها تحاول توسيع نفوذها في تلك المنطقة على حساب النفوذ الروسي ، وما زالت روسيا من جانبها تقاومها بكل الوسائل ، وتعمل على وقف أطماعها ومشاريعها ؛ ولم يحد البلاشفة عن سياسة القياصرة في هذا الشأن ، فقد عملت روسيا السوفيتية بكل ما وسعت على توطيد سياستها ونفوذها في الصين ، ووقفت تناضل اليابان وجها لوجه ، وكادت في الأعوام الأخيرة أن تشتبك معها غير مرة في حرب استعمارية ، ومع أنها اضطرت أخيرا أن تبيع لليابان حقوقها في السكة الحديدية الشرقية تجنباً للاصطدامات الخطرة ، فان النضال السياسي ما يزال بين الدولتين على أشده ، وقد أسفر في الأسابيع الأخيرة عن عدة حوادث ومناوشات دموية دلت على تفاقم خطر الحرب في الشرق الأقصى

ويدور الصراع الآن بين اليابان وروسيا حول منغوليا التي تشغل مساحة شاسعة في شمال الصين والتي تجاور منشوكيو من الغرب ؛ وتنقسم منغوليا سياسياً إلى قسمين أحدهما منغوليا الشمالية أو منغوليا الخارجية وهي تجاور سيبيريا وتقع تحت السيادة الروسية ، وقد حولها البلاشفة منذ أعوام إلى جمهورية سوفيتية باسم [illegible] » ؛ ومنغوليا الجنوبية أو منغوليا الداخلية ، وقد كانت [illegible] وحدة سياسية مستقلة داخلياً تحت حماية الصين ، و[illegible] السياسة البلشفية استطاعت منذ سنة ١٩٢٤ أن تجذبها [illegible] وأن تجعل منها جمهورية مستقلة حليفة لموسكو ؛ [illegible] أخرى فان التركستان الصينية تقع تحت النفوذ الروسي ، وقد وقعت فيها أخيراً حوادث وتطورات أدت الى انفصالها عن الصين ؛ وهكذا تسيطر روسيا على معظم أنحاء الصين [illegible] والغربية ، بينما تسيطر اليابان على الأقاليم الشرقية [illegible] وبعض الأقاليم الوسطى ؛ ويحتدم النضال بين الدولتين [illegible] الكبيرتين حول السيادة والغلبة في تلك الامبراطورية [illegible] الشاسعة التي تنقسم اليوم الى وحدات سياسية عديدة [illegible] بتنافسها وخصامها المستمر الى تسرب النفوذ الأجنبي و[illegible]

وتمثل [illegible] هذا الصراع الهائل الجنس الأصفر والجامعة الاسيوية ، و[illegible] لخوضه بجميع قواها السياسية والعسكرية والاقتصادية ؛ و[illegible] الروسيا فيه مصالح الجنس الأبيض والاستعمار الغربي في آسيا ؛ ومع أن روسيا السوفيتية لا تحظى بكثير من عطف الدول [illegible] ، فانها تعتبر مع ذلك حاجزاً منيعاً في سبيل الزحف الياباني [illegible] الغرب ، وتؤيدها الدول الاستعمارية الكبرى في هذا الصراع ؛ ذلك أن تقدم اليابان نحو الغرب والجنوب يكون معناه [illegible] صرح أوربا الاستعماري في الصين ، ويكون نذيراً بتقويض [illegible] البريطانية في الهند ، والسيادة الفرنسية في الهند [illegible] ، والسيادة الهولندية في جاوه وسومطره ؛ ونذيراً بتقويض [illegible] السوفيت في منغوليا والتركستان ؛ وتقويض [illegible] الاستعمار الغربي في هذه البلاد والأقاليم الشاسعة الغنية ، معناه [illegible] سيادة أوربا الاقتصادية في آسيا وضياع تلك الأسواق [illegible] التي غنمتها في ظل هذه السيادة التي تؤيدها جميع الوسائل والقوى الاستعمارية المادية والمعنوية

وليس [illegible] في أن اليابان تتقدم في هذا السبيل بخطى واسعة تزعج أوربا وتروعها ؛ فالصناعة اليابانية التي تدعمها ظروف محلية [illegible] تتقدم في جميع الميادين بخطى هائلة ، وقد غزت التجارة اليابانية الأسواق الاسيوية القديمة بسرعة مدهشة ،

وتخطى هذا الغزو إلى أوربا وأخذ يحدث الارتباك والذعر في أسواقها ، وأخذت أوربا تفكر في مصايرها الاقتصادية التي تدعمها في آسيا وافريقيا سيادة استعمارية تجوز اليوم في آسيا أمام الغزو الأصفر مأزقاً من أخطر المآزق ، والواقع أن اليابان تخوض غمار النضال مع الغرب في ظروف حسنة جداً ، فأوربا تشغل اليوم إلى أقصى حد بمشاكلها ومسائلها الخاصة ؛ وبينما تشخص الأبصار نحو ألمانيا ونهوضها الحربي ، وبينما تشتغل فرنسا بالتحوط لمقاومة ألمانيا وتوطيد تحالفها مع السوفييت ، وتشتغل إيطاليا بحلمها الاستعماري ، وتشتغل انكلترا بمقاومة مشاريع إيطاليا الاستعمارية ، إذا باليابان تحصر اهتمامها ومشاريعها في الصين ، وتنذر أوربا وأمريكا في جرأة وصراحة أن ارفعوا أيديكم عن الصين ، وتعلن عزمها على مقاومة أي تدخل أو محاولة استعمارية جديدة من جانب الدول في الصين ، على نحو ما يقرره مبدأ مونرو الأمريكي بالنسبة لأمريكا ؛ وقد كانت الدول الأوربية تعتمد من قبل على اضطرام المنافسة بين اليابان وأمريكا حول السيادة في المحيط الهادي ، واشتغال اليابان بأمر هذه السيادة والتحوط لضمانها وتوطيدها ، وكانت السياسة الأمريكية منذ أعوام تتجه فعلا الى مناوأة اليابان والحد من أطماعها ، ولكن أمريكا اليوم ترتد الى سياستها القديمة ، وتنظر الى مشكلة الباسفيك بعين أخرى ، وترى أن تقتصر على تأمين سلامتها البحرية في شرق المحيط ، يدل على ذلك أنها تنازلت عن حمايتها على جزائر الفلبيين التي كانت ترمي إلى اتخاذها من قبل قاعدة لمقاومة اليابان ومناوأتها ؛ وإذاً ففي وسع اليابان اليوم أن تعمل حرة من هذه الناحية مطمئنة الى موقف أمريكا وحيادها ؛ وليس في وسع الدول الأوربية من جهة أخرى أن تقوم في الوقت الحاضر بأية حركة مشتركة لوقف الزحف الياباني نحو الغرب ، ولا يقف في وجه اليابان اليوم سوى روسيا السوفيتية التي تشتبك معها كما بينا في عدة ميادين ومصالح خطيرة ؛ وروسيا السوفيتية تعمل دائماً لمواجهة الخطر الياباني ورده ، لأنه ينصب أولا على سيادتها الاستعمارية الباذخة في آسيا ، وهي من جهة أخرى تمثل قضية الغرب في هذا الصراع الجنسي والاقتصادي الخطير ؛ ولكن روسيا تواجه في أوربا أيضا خطراً آخر هو الخطر الألماني . وهو نفس الخطر الذي تواجهه فرنسا ، ومن ثم كان تحالف الدولتين ضد الخطر المشترك ؛ والسياسة البريطانية تشد أزر روسيا في هذا الصراع أيضاً ، ولكنها تنظر من جهة أخرى بعين الارتياح الى اشتغال روسيا بمقاومة الخطر الياباني لأنه يحول أنظارها عن العمل لمناوأتها في الهند وأفغانستان

والخلاصة أن خطر الحرب يجثم في الشرق الأقصى ، كما يجثم في أوربا ، وتطورات الحوادث في الشرق والغرب تسير مرتبطة متفاعلة ؛ وقد تضطرم شرارة الحرب الأولى في الشرق الأقصى ، كما قد تضطرم في الغرب ، ولكنها كفيلة بأن تفضي في أي الحالتين الى اضرام نار الحرب العالمية الجديدة

(***)

إبليس يعلّم... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : ودار السبتُ الثالث وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمت حلقتهم ؛ فقام رجل من عُرْض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الامام أحمد ابن حنبل[٢] كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان ، حفظنا منها قوله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن يُنضي شيطانه كما ينضي أحدُكم بعيره في سفره . وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطان الكافر دَهِينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزول أشعثُ أغبرُ عارٍ . فهل يأكل الشيطان ويدّهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرى ويتشعَّث ويغبر ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فان إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويُسمعه طنزَه وتهكمه[٣] حرَّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كأنما يقول له تنبَّه ويحك على معناي فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورة من الرد عليَّ ، ولكني حقيقة من الرد عليك ؛ وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عنقَ عدوه بمائة اسم وضعت للسيف . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة ابن عُقْبة الكوفي المحدّث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد ابن حنبل[٤] ؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يقال له (راهب الكوفة) من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظن الشيطان بهذا الخبر ، فان أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء الوقائع التي تنهزم فيها الجيوش ، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمَرات مع الشيطان ، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض ؛ فالناس يحسبونه قد تخلى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه في نظام آخر غير نظام أعضائه ولا أشق من ذلك على النفس ؛ ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف ؛ ولو أن ملكا عظيما تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزَتْ له جوانب الأرض لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها

***

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة بن عُقبة كثير الفكر في الشيطان يود لو رآه ونال له الكلامَ ، وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودُها فيه ويفسر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملَكا من الملائكة وتحوّل عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام ، أي وجد في الكون روحُ الخطأ حين وجد فيه الروحُ الذي سيخطيء . فلما هبط آدم من الجنة وحُرِمها هو وزوجُه وذُريته كان إبليس لعنه الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكأن هذه الآدمية أُخرجت من الجنة وأخرجت معها قوة لا تزال تصدُّها عنها ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدل الآلهي ، لم يعرف آدم حق الجنة فعوقب ألا يأخذها إلا بحقها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هوَّم فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكون العينُ نائمةً والعقل لا يزال منتبهاً ، فكأن العينَ متراجعةً تبصر من تحت أجفانها بصراً يشاركها فيه العقل . فرأى شيخُنا أبو عامر صورة ابليس جاءه في زيِّ رجل زاهد حسن السَّمْت طيب الريح نظيف الهيئة ، وكاد يشتبِّه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه فان عيني الكاذب تصدقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدميٌّ فقدر لجمل عينيه كالعلامات لمن خاض العلاة

وظهر الشيطان زاهداً عابداً تقياً نقياً كأنه دين صحيح خلق بَشَراً فصرخ به أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمعصية في ثوب الطاعة ؟

(١) داعبنا إبليس لعنه الله مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال وسنقتص للقراء حكايته إن شاء الله

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ وكان من حفاظ (بلخ)

(٣) الطنز التهزؤ والتهكم ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة

(٤) توفي سنة ٢١٥

قال ابليس : يا أبا عامر ! لولم تقل المعصية إنها طاعة لم يقارفها أحد . وهل خلقت الشهوات فى نفس الانسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس ، وجعل كل منها طاعة لشيء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية . أولا ترى يا أبا عامر أن الحيلة محكمة فى الداخل من الجسم أكثر مما هى محكمة فى الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله فى الانسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموت قد خلق إلا ردا عليك أنت ليتبين الناسُ أنك المتلىءُ المتلىءُ ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية بك وردّ عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهى تموت ، وإنما تمامُ وجودها ساعة تنقضى ؛ ومتى قالت اللذة قد انتهيت ، فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف

قال إبليس : يا أبا عامر ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقيها حية ، فهى تلد الحنينَ اليها وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضى وتلد

قال الشيخ : معانى التراب ، معانى التراب ؛ كل نبتة فيها بذرتها . ولكن عليك لعنة الله لماذا حدثتنى فى هذه الصورة ؟

قال ابليس : لأنى لا ألبس إلا محبةَ القلب الآدمى ، ولولا ذلك لطردتنى القلوب كلها وبطل عملى فيها ؛ وهل عملى إلا التلبيس والتزوير ؟ أفتدرى يا أبا عامر أنى لا أعترى الحيوان قط ؟

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر الى الشيء إلا نظرةً واحدة هى نظره وفهمُه معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ؟ تَنزّلُ على كل أفّاك أثيم » فأنت أيها الشيطان التزوير ، والتزوير موضعه الكذب . فمن لم يكذب فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء فليس لك عنده عمل

قال ابليس : يا أبا عامر ! وهل ترى رحمك الله أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد والعُبّاد هو فى جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة فى كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك ؛ إن الحيوان شيء واحد فهو طبيعة مسخّرة بنظامها ، ولكن الانسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فألوهيته أن يُقرّ النظامَ بين هذه المتناقضات كأنما امتُحن وأُعطىَ من جسمه كوناً فيه عناصرُ الاضطراب وحوله عناصر الاضطراب ثم قيل له دَبّره

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكت لعنك الله ؟

قال : ضحكت من أنك أعلمتنى حقيقة الابليسية ، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة

قال الشيخ : عليك لعنة الله فما هى تلك الحقيقة التى زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ما غلا انسان فى زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هى الابليسية ؛ وسألتك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل انها ألوهية تقر النظام بين متناقضات الانسان ومتناقضات الطبيعة

قال الشيخ : وتسخر منى لعنك الله ؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدرُ من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلّمها ؟

قال : عليك لعنة الله فما هى حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر هى التى أعجزتنى فى نبيكم

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم فما هى ؟

قال إبليس : هى ثلاث بها نظام النفس ونظام العالم ونظام اللذات والشهوات : أن تكون لك تقوى ، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى ، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعت هذه الثلاث فى إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس

فان كانت التقوى وحدها كتقوى أكثر الزهاد والرهبان ، فما أيسر أن أجعل النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلادة والفضائل الكاذبة ؛ وإن كان الفكر وحده كفكر العلماء والشعراء فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيغ والالحاد والبهيمية والرذائل الصريحة

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتقوا ربهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مُبصرون »

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرنى والله أن أفسّر لك فان قارورة من الصّبغ لا تصبغ البحر ، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع فى الناس بجانب كلٍ واحد منهم مئة ألف امرأة مفتونة ومائة ألف رجل فاسق ومائة ألف مخلوق ظالم ، ولو أنك صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الانسانىّ

بالزاهد والمصلح مادام المصلح شيئاً غير السيف ، ومادام الزاهد شيئاً غير الحاكم

قال الشيخ : لعنك الله من شيطان عارم ، فاذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد فهل هذه إلا طريقة شيطانية لافساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر كل واحدة تحسب جسمها . . .

فصرخ الشيخ : أغرُبْ عني عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عامر . لقد لقيتُ المسيح وجرّبته وهو كان تفسيرها

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقيتُ به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ولا يظن أنه يجد ولا يرجو أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روحَ الله وكلمته كما تزعم فمر هذا الحجر ينقلب خبزاً . فكان تقيا فتذكر فاذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحوّل ، لأن الموت إتمامُ حقيقته السامية فوق هذه الدنيا ، ولو مُلئت له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول ، لأنه بصرا من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا بل بمعان أخرى هي إشباعُ حقيقته السماوية التي لا شهوة لها

ثم ارتقيت به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين كشفتها كلَّها لعينيه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لي . فكان متقيا فتذكر فاذا هو مبصر : أبصر حقيقة الخيال الذي جسَّمتُه له وعلم أن الشيطان يعطي مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يعطيها في ساعة لذة ، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى ، ثم لا يبقى من كل ذلك باق غير الاثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت له ، فهي خيال في جرعة الحياة كما هي خيال في جرعة الخمر

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر الذي وراءه التذكر الذي وراءه التقوى التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفّيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر وآخر وجودها التلاشي

فالبصر الكاشف الذي يجرد الأشياء من سحرها الوهمي ، هذا هو كل السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر هذا سؤال شيطاني . . . تريد ويحك أن تحتال على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك . ليس الايمان هو الاعتقاد ولا العمل ، ولو كان من هذين لما شقّ على أحد واصلحت الدنيا وأهلها . إنما الايمان وضعُ يقين خفيّ يكون مع الغريزة في مقرها ، ويصلح أن يكون في مقرها لتصدر عنه أعمالُ الغريزة . وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبر من الدنيا فيرجع إليه الانسان فيتذكر فيُبصر . هناك ميراث من الآخرة للمؤمن ، فاليقين بهذا الميراث هو سر الايمان

والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين وممارضة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر للمغفل عظيمة كما تُشب نار أكبر من قرص الشمس ثم يقال للأبله انظر بعينيك فيصدق أنها أكبر من الشمس

ومتى صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر منه في النفس ، فأيسر أسباب الحياة حينئذ يفسد المعتقدَ ويسقط الفضيلة ، وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ

أما إذا ثبت اليقين فالشيطان مع الانسان يصغر ثم يصغر ، ويعجز ثم يعجز ، حتى ليرجع مثل الدرهم إذا طمع الطامع أن يحمل الرجل الغني الكثير المال لصاً من اللصوص بهذا الدرهم

قال الشيخ : لعنك الله ! فان لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر إنّ لم أستطع إفساد اليقين زدته يقيناً فيفسد ، واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة . وبأي عجيب يكون الشيطان شيطانا إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ فمد يده فأخذ فيها عنق إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عصره عصراً شديداً يريد خنقه فقهقه الشيطان ساخراً منه . وينتبه الشيخ فاذا هو يشد بيده اليمنى على يده اليسرى . . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الضمير

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

غامض في لفظه غموضه في معناه، ومستتر رغم ما يبرز من آثار؛ هو أقرب الأشياء منا وألزمها لنا، بل يكاد يكون كل شيء فينا: «والمرء بأصغريه قلبه ولسانه» بيد أنا إن حاولنا توضيحه توارى بالحجاب وأمعن في الاستتار والخفاء. نؤمن بوجوده دون أن نراه أو نفهم في وضوح حقيقته؛ وكيف ننكره وفي إنكاره إنكار لأنفسنا وهدم للدعامة الأولى من دعائم شخصيتنا؟ يأمر فيطاع، وينهى فيستمع له، ويسر ويحزن، ويخالط عواطفنا وأحوالنا النفسية على اختلافها؛ يعقد محكمته في أسرع من لمح البصر، ويصدر أحكاما غير قابلة للنقض والابرام. لذلك اتجه اليه الواعظ في وعظه؛ وناداه رجل الدين في نصحه، وجعله الأخلاقي أساساً لدرسه، وتولاه عالم النفس بالبحث والتحليل

يغلب على الظن أن العرب لم يستعملوا كلمة «ضمير» بمعناها الخلقي والنفسي الذي اصطلحنا عليه الآن؛ فانهم أطلقوها على القلب والباطن والسريرة فحسب. وهذا المعنى، وإن كان يقرب من العرف الحاضر، متميز منه تمام التميز. وفلاسفة الاسلام ومتصوفوه، برغم تحليلهم الدقيق لبعض العواطف النفسية كالعشق والشوق والندم والتوبة لم تجر كلمة «ضمير» على لسانهم إلا في دوائر تختلف كثيرا عما نحن فيه، ويظهر أن العرب قد استعاضوا عن هذه الكلمة بلفظة «زاجر» التي تؤدي معناها بعض الأداء: «من لم يكن له من نفسه زاجر، لا تنفعه الزواجر» فكلمة «ضمير» بمدلولها الفلسفي وضع حديث واستعمال يرجع به العهد فيما نعتقد، إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين بدئ في ترجمة كلمة conscience الأجنبية؛ وهذه الترجمة — وإن تكن صادقة في جملتها — مثار غموض واشتباه؛ لأنها تعبر عن الضمير الخلقي والنفسي بلفظ واحد. إلا أن اللغة الفرنسية وقعت في هذا الغموض من قبل واستعملت لفظاً مشتركا للدلالة على الضمير من حيث مظاهره الخلقية وأحواله النفسية. وقد تنبه الألمان والانجليز إلى هذا فخصوا الضمير النفسي بلفظ يميزه من الضمير الخلقي، وأصبح لعالم النفس كلمة يدل بها على الضمير غير تلك التي يستعملها الأخلاقي[1] وما أجدر كل اصطلاح بأن يوضع له لفظ خاص يناسبه[2]؛ غير أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه التفرقة اللفظية إنما يراد بها فقط فصل العلوم بعضها عن بعض وقصر كل فن على مصطلحات معينة.، وإلا فالواقع يشهد أن الضمير الخلقي هو الضمير النفسي ملحوظاً فيه معنى الخير والشر. فليس في الانسان ضميران يفصل أحدهما في الأحكام الخلقية ويتولى الآخر الأحوال النفسية. لكل منا ضمير واحد قد تتنوع أجزاؤه بتنوع مظاهره ووظائفه

لم يعن الأغريق بموضوع الضمير ولم يدرسوه الدراسة اللائقة به لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية النفسية، ذلك لأن الأخلاق كانت تعتمد عند فلاسفتهم الأول على أساس اجتماعي. فأفلاطون كان يتعزى عن شقاء الأفراد بما كان يرجو من سعادة الجمعية؛ وارسطو لا يكاد يفصل الحياة الخلقية من الحياة السياسية. نعم إن الأبيقوريين والرواقيين قد نحوا بالأخلاق منحى فرديا، وحاولوا أن يؤسسوا سعادة الفرد على الفرد نفسه؛ ولكنهم ذوو نزعة مادية تتنافى مع التحليل الروحي للضمير. ومن الناحية السيكلوجية نلاحظ أنه فات الأغريق، بل القدامى عامة أن يتميزوا وحدة الظواهر النفسية، التي هي أثر من آثار الضمير. وإن من جهل هذه الوحدة أو قال بنظريات تناقضها لا يستطيع أن يفهم الضمير على وجهه الصحيح. وفوق هذا فانهم كانوا يخلطون بين الضمير وبعض الأحوال النفسية؛ فأفلاطون مثلا لا يفرق بينه وبين المعرفة، وأصحاب الرواق يطلقونه على معرفة الحق والباطل. وقد بقي أمر الضمير مهملا الى أن جاء صوفية القرون الوسطى من مسيحيين ومسلمين فأعاروه جانباً من العناية والدرس. والتصوف، وهو علم القلوب، لا يمكنه أن يغفل مشكلة الضمير وينسى ركناً تقوم عليه المناجاة الروحية. لذلك نسمع رجلا كأبيلارد بين المسيحيين يحدثنا عن الضمير وأثره في الأعمال الخلقية؛ كما نرى الغزالي مثلا بين المسلمين يشرح مراقبة

(١) نعلم أن الفرنسيين يستعملون من غير تمييز كلمة conscience في أبحاثهم الخلقية والسيكلوجية، وقد يضيفون اليها أحياناً وصفاً مخصصاً فيقولون: conscience morale et conscience psychologique
أما الألمان والانجليز فيسمون الضمير الخلقي: Gewissen, conscience
والضمير النفسي: Bewusstsein, consciousness

(٢) قد يسمى الضمير النفسي الشعور، وعل في هذه التسمية ما يدل على وظيفته وإن كانت لا تبين تماما حقيقته

النفس وقوة المحاسبة التي يمكن أن تنطبق على الضمير بمعناه الحديث. غير أن هذه المحاولات في جملتها محدودة وجزئية. وإلى رجال العصور الحديثة يرجع الفضل في شرح موضوع الضمير ومنحه ما يتطلب من عناية ومجهود. وتكاد تكون المدرسة الأبيقورية أول من تنبه إلى هذا الجانب الهام من النفس وإلى أثره في الأخلاق. ثم تبعتها مدارس أخرى اقتفت رأيها أو ردت عليها، إلى أن جاء ولم جيمس وبرجسون فدرسا الضمير دراسة نفسية قضت على كثير من النظريات القديمة، وغيرت مجرى التفكير في علم النفس إلى حد كبير. ولم يفت الاجتماعيين المعاصرين أن يعرضوا لمشكلة الضمير ويوضحوها على ضوء البيئة والظروف الاجتماعية. وهذه الدراسات مجتمعة ترمي إلى تحديد ماهية الضمير وحقيقته، وبيان أصله وطبيعته، وتوضيح قيمته ووظيفته، ثم إلى اثبات تنوعه بتنوع الأفراد والجماعات، وتطوره تبعاً لاختلاف العصور والأجيال

في قرارة نفوسنا وحيث تتكون أفكارنا وتمد أحكامنا، هناك رقيب ملازم يشهدها ويقفنا عليها أولا فأولا؛ هذا الرقيب هو ضميرنا والشعور الروحي الذي نحس به على أثر أية حركة من حركاتنا النفسية، والالهام المستمر الذي ينقل إلينا كل ما يجول بالخاطر. فالمرء حين يفكر يشعر في الوقت نفسه بما يصنع، ويدرك أن تفكيره من عمله وقطعة منه. وكذلك شأنه حين يفارق أو يوازن أو يتذكر معلومات قديمة أو يقضي في أمر بقضاء ما، أو يسر أو يحزن، أو يحب أو يبغض. وشعور الانسان بتفكيره وإدراكه لخفايا قلبه ليس إلا معرفته لنفسه ووقوف روحه على ما تعمل. وعلى هذا فالضمير جزء لا ينفصل من الظواهر النفسية وأساس لكل أعمالنا الباطنية. هو الشخصية في صورتها البسيطة المجردة ومبعث النور الأول في الحياة العقلية. وخطأ أن نعده قوة مستقلة ومتميزة من الأحوال النفسية كالعين تتميز من الشيء المرئي. فقد انقضى الزمن الذي كان يقال فيه بتقسيم النفس إلى قوى منفصلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص. ولسنا في حاجة لأن نقرر هنا أن في الانفعالات مثلا قدراً من التفكير لا يصح انكاره، كما أن الجانب الفكري للانسان في أرقى صوره مشوب ببعض العواطف والميول. على أن القول بالقوى إن صح تصوره بالنسبة لبعض مظاهر النفس، فواضح عدم انطباقه على الضمير الذي هو الشكل العام ونقطة الاشتراك والصورة الرئيسية لكل الأعمال العقلية. والمدرسة الأبيقورية وإن كانت من أول من عني بموضوع الضمير بين المحدثين أساءت من ناحية أنها عدته قوة قائمة بذاتها وشبهته بأحد النظارة يشهد رواية الحياة النفسية دون أن يقاسم فيها بنصيب (١)

وإذا كان الضمير شعور النفس بما تعمل، فسهل أن نتميز في هذا الشعور درجات بعضها أوضح من بعض. ففي اللحظات التي بين اليقظة والنوم نشعر بما يجري في نفوسنا شعوراً مبهماً غير محدود؛ والأحلام والرؤى تتصل من غير شك بالضمير في أغمض صوره، أو إن شئت فسمها مرحلة العقل الباطن. فإن جاوزنا هذه المرحلة وجدنا أحوالا نفسية واضحة بعض الشيء إلا أنها سريعة وغير متمركزة، وما ألصق هذه الأحوال بالأعمال المادية والأمور المألوفة؛ فالضمير يدركها دون أن يقف أمامها طويلا. وبعد هاتين المرحلتين نصل إلى درجة فيها تفكير وروية وتذكر وانتباه وبحث ومجهود. وهنا تبدأ المعرفة الحق ويدرك الضمير عمله في وضوح. وعلماء نفس الطفل المعاصرون وعلى رأسهم كلاباريد (Claparéde) وبياجيه (Piaget) قد خصوا هذه المرحلة بقدر كبير من العناية، وبينوا كيف يخطو الناشئ نحو إدراك نفسه وتكوين معلوماته؛ ثم تجيء أخيراً مرحلة التفكير الانساني في أسمى صوره، حيث تعرض المشاكل العلمية والفلسفية، ويجهد الانسان نفسه في تفهمها وقلبها على وجوهها رجاء أن يصل إلى حل واضح مقنع، وما هذه المرحلة إلا امتداد لسابقتها وصورة مكبرة لها؛ والأبحاث العقلية في جملتها شك للضمير، ومبعث نضال نفسي مستمر يراد به الوصول إلى الأفكار الجلية النيرة

يزداد فهمنا للضمير إذا بينا الخصائص التي تمتاز بها مظاهره؛ وقد عني جيمس وبرجسون بشرح هذه الخصائص وتوضيحها التوضيح الكافي؛ وأول شيء نلاحظه في الظواهر النفسية هو اختلاطها وتشعبها؛ فلا نكاد نجد أنفسنا أمام ظاهرة واحدة منعزلة، بل دائماً أمام مجموعات من أحوال نفسية مختلفة، أو كما يقول جمس أمام حقول اكتسى بساطها بشتى الأزهار

(١) Th. Reid. Essai sur fac. intell., III,2.

والألوان (fields of canscio...es) فى ظاهرة نفسية واحدة ، تل[illegible]سات متنوعة ، وذكريات قديمة ، وعادات ثابتة ، و[illegible]ار عديدة ، وأحكام وتعليلات ، وموازنات لا حصر لها ؛ وهذه الأحوال النفسية كالأمواج الزاخرة تجرى وتتغير من غير انقطاع ؛ ومن هنا جاء تعبير جيمس المشهور : تيار الفكر أو تيار الضمير[1] . فاحساسنا بشىء فى حال اليقظة يخالف عنه فى حال النوم ؛ وإدراكنا لأمر ونحن متعبون يختلف عن إدراكنا له ونحن مستريحون ؛ وشعور هذه اللحظة لا يتكرر مرة أخرى فى نفس الظروف والمناسبات التى اقتضته ، ولئن بدا تكراره لم يعدُ ذلك المظهر العام ؛ أما التفاصيل والجزئيات فمختلفة لا محالة ، وكأن حركة التفكير كنهر جار تتابع موجاته إلى ما لا نهاية دون أن تعود موجة سيرتها الأولى ؛ والفكرة الواحدة المستمرة التى تخطر ببالنا من حين لآخر دون تغيير أو تبديل أمر خيالى وبعيد عن الحقيقة[2] . فنحن نحس الآن على صورة خاصة لن تستمر فى اللحظة التالية ، وما دمنا أحياء فنحن عرضة للتغيير ، وما أصدق بسكال حين يقول :

« الزمن يشفى الآلام والأحقاد لأنا متغيرون ولا نحتفظ بشخصية واحدة ، فلا المسىء ولا المساء اليه يبقيان كما كانا[3] »

بيد أن القول بأن ظواهر النفس فى حركة وتغير مستمر ليس معناه أن فى تيار الضمير انفصالاً أو انفصاماً أو تبايناً . فظواهر النفس فى حركتها تدور حول نقطة واحدة وتتصل بأساس ثابت ؛ وحياتنا الروحية فى هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى وحدتها . وعلى هذا فالحاضر من أحوالنا النفسية يحمل فى طياته الماضى ويمهد للمستقبل ، وفى النفس حركة فى انفصال وتغير فى ارتباط . ومثل الحياة العقلية فى هذا مثل قطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً . وما ذاك إلا لأن أحوال النفس جميعاً متصلة بشخصية معينة ، ومنجذبة نحو مركز واحد ، ومنبعثة من شمس الضمير الوحيدة . وأوضح شىء فى عمل النفس أنه يستلزم فاعلا ؛ ففكرة ما إما أن تنسب إلىّ أو إليك أو إلى زيد من الناس . والفكرة التى لا أب لها لا أصل لها ولا وجود ؛ على أنها إن وجدت فلا سبيل إلى تعرفها والتأكد منها ، لأن ما نتبادله من أفكار إنما هو عمل أشخاص معينين محدودين .

من خصائص مظاهر الضمير التى ألممنا بها سراعا نتبين بطلان المذهب الذرى الذى يزعم أن الحياة العقلية بأسرها ترجع الى جملة أفكار بسيطة التقت وارتبطت ونتجت عنها أفكار أخرى مركبة ؛ ومجموع هذه وتلك مسود بقانون تداعى المعانى . فالظواهر النفسية تتلخص فى جملة وحدات وضع بعضها بجانب بعض ، وفى مجرد انضمامها ما يكفى لتكوين حياة عقلية . تلك هى نظرية لوك ومن جاء بعده من رجال المدرسة الانجليزية أمثال هيوم وميل وبين وسبنسر . ولا يبعد عن هذه النظرية كثيرا ما قال به كونديلاك الفرنسى من أن الروح ليست إلا مجموعة صور حسية توزعت الى طوائف عدة فنشأت عنها القوى النفسية المختلفة . وكلتا النظريتين تهدم فكرة الضمير من أساسها ، ولا ترى فى النفس شيئا سوى ما يمليه الحس . لذلك قام فى وجهها الأبقوسيون من جانب ، ومين دى بيران من جانب آخر ، مثبتين أن فى الروح حياة وقوة تجاوز المدركات الحسية ، ولولا هذه القوة وتلك الحياة ما نظمت آثار الحس ، ولا نتجت عنها أفكار مستقيمة . هناك روح ، هناك نفس ، هناك شخصية ، أو هناك ضمير ، سمه ما شئت ، والمهم أن الظواهر العقلية ليست مجرد أوضاع لصور حسية ، أو لوحدات متحجرة لا حياة فيها ، ولا تستطيع بالأولى أن تبعث الحياة فى غيرها . وأعمال بينيه ، ومدرسة فورتسبورج الالمانية وجيمس وبرجسون فى الخمسين سنة الأخيرة قائمة على شرح هذا الرأى ونصرته

والآن وقد اتضح الضمير فى مظهره النفسى ، يجدر بنا أن نفرق بينه وبين الضمير الخلقى ، أو أن نحدد بعبارة أدق مهمته من الناحية الأخلاقية . فى حين أن الضمير النفسى يقفنا على ما يجرى فى داخلنا ، ويشاطر فى الظواهر العقلية على اختلافها . يعنى الضمير الخلقى باصدار الأوامر الصالحة والحكم على الأعمال الانسانية . فاذا ما تعلق بالمستقبل بدا أثره كصوت خفى يأمر وينهى ، وإذا حكم على الماضى صحبت حكمه عواطف كثيرة من سرور وألم . « فصوت الضمير » هو ذلك النداء الخفى والوحى

(١) stream of thought or stream of consciousness.

(٢) W. Fames, Principles of Psychology, I, pp. 231 ss. — H. Bergson, Evolution créatrice, pp. 2s s.

(٣) Pascal, Pensées, frag. 122.

الشخصي الذي يدفعنا نحو غاية أو يصرفنا عنها. وهذا التعبير ربما يظهر من أصل ديني صوفي؛ وقد جاء التحليل النفسي الحديث مؤيداً له فإن المرء حين يقضي في أمر بقضاء ما، يبدو كأنه تحت تأثير اتجاهات مختلفة، إن ساد أحدها ارتفع صوته وصدر أمره. وإذا كان صوت الضمير مبعث الأمر والنهي فوخزه مصدر الندم والألم. وكم اتجه أشخاص نحو جلائل الأعمال امتثالاً لأصوات ضمائرهم! وكم انصرف آخرون عن الشر لأنهم عانوا وخز الضمير وما جلبه عليهم من شقاء وبلاء

(يتبع) إبراهيم مدكور

تلخيص كتاب:

الحاكمون بأمرهم
LES DICTATEURS

تأليف جاك بانفيل

بمناسبة وفاته في ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

« أيها العظماء! هل تريدون المجد؟ موتوا »
فكتور هيجو

وهذا أيضاً رزء فادح نزل بفرنسا، إذ لم يكد جاك بانفيل يتبوأ مقعده بين الخالدين في كرسي الرئيس بوانكاريه في مارس الماضي حتى اختطفته يد المنون من مجلسه الرفيع؛ وهكذا فقدت فرنسا والمجمع في ثلاثة أعوام متعاقبة ثلاث كفايات متقاربة. فذهب بوانكاريه « الذي لا يرتشي L'incomuptible » ثم ذهب «لويس بارتو» صاحب «ميرابو» وصاحب «دانتون»، وأخيراً مات بانفيل

كان الثلاثة دعاة كبارا لمجد فرنسا؛ ولكم شنوا الغارة على موجة الاشتراكية التي امتدت على أرض فرنسا وردتها خطوات واسعة إلى الوراء

كان بوانكاريه في الحرب وفي السلم، وفي قصر الأليزيه أو في (السكي دورسيه) أو في «المحكمة» فرنسياً وفرنسياً فقط؛ وهكذا كان الشهيد « بارتو » حتى في «مصرعه » أما بانفيل فقد كان قلمه قوة فوق القوى... ولما استقبله « دوماي » عميد الأكاديمية في ٧ نوفمبر الماضي قال له: « إن الجمع يخلي بينك وبين مقعد الرئيس بوانكاريه، فلقد استطعت أن تقول للملأ الأعلى وللعالم أجمع ما كان يمنعه مركزه السياسي من أن يقول »

مات رجل كان فرنسياً من قمة رأسه إلى أخمص القدم.. مات رجل كم حمل على إنجيل « سنت هيلين » ذلك الإنجيل الذي دعا فيه بونابرت إلى خلق الدول التي زلزلت من بعد انعدام فرنسا في الوجود.. مات أكبر أعداء ألمانيا!

في كتابه عن « نابليون » وفي كتابه «تاريخ ثلاثة أجيال»، وفي كتابه « تاريخ فرنسا »، وفي « الجمهورية الثالثة »، وفي « تاريخ ألمانيا »، وفي حملاته الكبرى مع شارل موراس وليون دوديه أبطال الحكم الملكي كانت توضع « مقايسة » جديدة لإنشاء جيل جديد

كنت أقرأ له منـذ أيام آخر كتاب أخرجه للناس « les dictateurs » وكان يقعدني العمل أو الكسل عن أن أنقل عنه كلمة للأدباء قراء (الرسالة)، فلما مات وضجت لموته فرنسا، ووقعت معارك « الاكسيون فرانسيز »، وكان الاعتداء على زعيم الاشتراكيين « ليون بلوم » كان علينا أن نلخص كتابه للناس

* * *

وضع الناشر على الكتاب عبارة تنبيء عن غاية الكتاب قال: « لا تحكموا عليهم قبل أن تعرفوهم » وقدم المؤلف له بقوله « ... الدكتاتورية ككثير من الأشياء قد تكون أسوأ نظام الحكم وربما كانت خير نظام؛ ولئن كانت خيراً أو شراً فإن الظروف تلجئ إليها أحياناً فيخضع الناس لها دون أن يكون لهم حق الخيار... فعلى الشعوب ألا تضع نفسها في مثل هذه الظروف .. » ويناقش المؤلف ما يظنه البعض من أن الدكتاتورية اختراع ابتدعه العصر الحديث، فما هي إلا سيرة معادة من سير العصور الغابرة؛ ثم يعبث عبثاً مريرا بأحد الساسة الذي أطلق على أول دكتاتور معاصر لقب « قيصر الكرنفال » ولربما كانت الدكتاتورية سداً يقام أمام طوفان الشيوعية الحمراء أو الديمقراطية الرعناء؛ ولطالما كانت نداءً حاراً للمساواة بين الناس، أو لتهذيب شِرة رأس المال؛ وكثيراً ما كانت لإقرار نظام النقد إذا شالت به كفة الميزان

يهبط بانفيل ببحوثه إلى أعمق أغوار التاريخ قبل الميلاد فيفتتح الكلام ببحث عن « طغاة الإغريق les tyrans » وأولهم أول مشترع عرفه التاريخ « صولون » ثم « بركليس » ثم يسرع

المؤلف ... روما وأبطالها الأربعة « ماريوس » و « سيلا » و « بومبي » و « يوليوس قيصر » ، وفى مجالته عنهم يضرب الأمثال ويذكر العبر . فهذا « ماريوس » يجشم جيشه مخاطر الحرب فى « نوميديا بافريقيا » ليثبت أقدامه فى روما تماماً ، مثلما يغامر « موسوليني » فى الحبشة ليقوى أسبابه لدى الطليان ... وهذان القنصلان « سيلا وبومبي » يخوضان إلى الحكم فى بحار من الدم . وهذا « قيصر العظيم » فاتح الغول ومصلح القضاء وعدو الترف فى أساليب فشستية تذكر به أحفاد الرومان فى القرن العشرين فيديرون أعينهم نحو ذلك الطود الذى يسيطر على مصائر روما منذ أعوام

ثم يطوى التاريخ طياً ليقف بك أمام أول دكتاتور فى التاريخ الحديث فيسترعى نظره أن يكون « كرومويل » أول الدكتاتوريين ويكون فى نفس الوقت أبرز أبناء أمة تسمى « أم البرلمانات » ، وكأن الدكتاتورية ظاهرة تبدو مع الثورات دائماً أو مع الديمقراطية أو مع النظام النيابى

نائب كمبردج فى سنة ١٦٢٨ وقائد الخيالة فى معترك الثورة سنة ١٦٤٤ ، ذلك الفيلق الذى اشتهر بأنه « الشاطئ الحديدى » والذى ارتفع على صهواته كرومويل إلى ذروة الزعامة المطلقة ، ذلك مثلما عبر هتلر على أكتاف القمصان السمراء ، وكما وصل موسوليني بقمصان سود ؛ فلما قتل شارل الأول واستتب الأمر للدكتاتور أعلن أن الحكم يومئذ للدين ، وفى ٢٠ ابريل سنة ١٦٥٣ ذهب إلى دار النيابة يقول : « هيا يا قوم ... كفاكم سفسطة » وحل المجلس وانفرط عقد المساكين وعلق بيده على باب البرلمان لوحة مكتوباً عليها « ... غرفة غير مفروشة للايجار !!! » لكن الأيام مضت والى الطاغية نفسه وحيداً وأعاد البرلمان ، وأخيراً بعد ١٤ عاماً من الحرب الأهلية مات كرومويل وعاد شارل الثانى بعد أن تعلمت الأمة أن الملكية خير وأبقى ، ولكن بعد أن تعلم الملوك درساً

وهذا هو الكردينال العظيم : أبو فرنسا وأبو الأكاديمية يضع يده على مقاليد الحكم فهى فوضى ما لها من قرار . فمن ملك حدث بين أكتاف أم طائشة يهدد ملكه أمراء طامحون ، إلى أمراء يمكنون لسيادتهم فى الأرض كأنهم رؤوس تعلو مفارقها التيجان ، إلى نزاع دينى بين « الهيجنوت » والدولة . . كل ذلك فى الداخل ، أما فى الخارج فبيت هبسبورج تقدح عيناه بالشرر ؛ لكن الأب « ريشيليو » لا ينهزم ، فيسلخ السنوات الأولى من « وزارته » فى أخلد كفاح سياسى عرفه التاريخ لوزير ، ويضرب الأمراء ضربات ليس فيها إشفاق ، ويقتلع نفوذ الهيجنوت من الأعماق ؛ وبعد أن يوطد دعائمه فى الداخل ، يمشى إلى النمسا بفيوض الحماسة الفرنسية لتنتصر عليها فى معارك دامية ! . . . كم يرسم المؤلف من رائع الصور وأسماها لهذا الأب وهو محموم ومحمول على محفة متواضعة يتنقل فيها بين أطراف الدولة ليستولى على قلعة أو ليخضع أميراً أو لينازل النمسا . . . ! كل ذلك وهو فى « جفن الردى وهو نائم » فان الأمراء لم ينصبوا له أقل من عشر مؤامرات دموية جهلاً منهم أن أفزع لا يعرفه قلب كهذا القلب ، بل التهديد يسكب فى أمثاله فيضاناً من الحياة ، فلا يتردد فى أن يستل من أحضان الملك صديقه (سانمارس) و (دى ثو) ليقدمهما إلى المقصلة لأنهما وأضرابهما (مجرد خونة من الطراز المبتذل » ثم لا يتردد فى أن ينفى من فرنسا أم ملك فرنسا ، وبمرسوم من الملك ! وبينما يلقاه الهيجنوت فظيعاً فى الحرب ، يراه زعيمهم « دى روهان » بديعاً فى السلام . . . هذا هو حاكم فرنسا المطلق ريشيليو

بعد ذلك صفحات مشرقة عن « الملك الشمس » الملك القائل : « أنا الدولة » لويس الرابع عشر الذى حكم حكما مطلقاً أكثر من نصف قرن لبلد أزهى عصور الملكية فى فرنسا أو فى التاريخ

ثم يعقد المؤلف فصلاً للكلام عن « وسائل الطغيان المستنير » فعنده أن أصحاب الانسكلوبيديا ومنهم « ديدرو » لم يكن فيهم جمهوريون ؛ وحتى ڤولتير « Le roi Voltaire » كما كان يسميه فريدريك الأكبر كان يفضل سلطة الفرد . أما صاحب العقد الاجتماعى الذى كان يُفتى ويشير فى النظم والدساتير فكان يرى الحكم الجمهورى صالحاً للدول الصغيرة ، أما الدول الكبرى فلم يكن يراه نافعاً لها بل فى العقد الاجتماعى دفاع غير قليل دافع به « روسو » عن الحكم المطلق . وفى القرن الثامن عشر فلاسفة كبار كانوا يعتذرون عن الحكم المطلق حكم الفرد المستنير « نصير الاصلاح » الذى كان يسميه رينان Le bon tyran أى الطاغية الطيب ، وإذا كانت الثورة قد قضت على هذا النظام فان فرنسا عبدته فى شخص نابليون . . وفى الحق أنك لا تستطيع أن تنسى — فى عصرنا هذا — مقدار ما تحظى به من التأييد نظرية المفكرين الممتازين « المفكرين الأرستقراطيين » وسواها أن التقدم لا يمكن أن يأتى من الجماهير بل هى تساق اليه وراء طائفة من « الأفراد » الكفاة . . . وكثيراً ما يكونون منها

وفى الثورة الكبرى طغى « روبسبير » فصار قطعةً من طغيان الثورة الدموية أو المجزرة ، لكأنى به جملة من اسمها أو مقدمة من منطقها فلولاه ما انتجت الثورة نابليون . . . وما أدراك ما نابليون ! ابن الثورة فى فرنسا ، وابن الجماهير فى كل الدنيا ؛ النجم الذى تلألأ فى الأفق على غير ميعاد ، والحلم الذى طاف بأجفان الانسانية حيناً من الليل ثم صحت تتفقده ؛ اللاعب الذى كان يحرك الملوك والشعوب على رقعة الدنيا كرقعة الشطرنج ؛ الفاتح الذى كان ينثر الحرية ، ويبذر المساواة ، ويعلم العلم ، فى المشرق والمغرب أنى أسال دم الفتوح ؛ المنشىء الأمم والجامع الأجناس ، واضع تصميم أوربا الحديثة

لقد كان المستبد الحائر ، أو المستبد العادل ، أو الطاغية

كانت كل السلطات فى يديه ، وكان الخير يتفجر منهما والشر والجريمة أحياناً

كان مشرعاً يضع بنفسه (قوانين نابليون) ، وكان يدير دفة السياسة فى الدنيا ، وكان يحيط بالجحفل اللجب فى أسترلتز ويكتب إلى جوزفين !! وكان يصدر مرسوم الكوميدى فرانسيز وهو يتفجع أمام حرائق موسكو ، وينظر إلى صورة « النسر الصغير » نابليون الذى سماه ألد عداته وهو «شاتوبريان» : « شاعر يعمل » ؛ أو كما قال أوكتاف أوبرى : « ابن الثورة الأكبر الذى أنشأ الدنيا الحديثة على أنقاض ما هدمته الثورة من الدنيا القديمة » والذى بنى الدول حتى بعد أن مات !! فبعث إنجيل سنت هيلين من الموت : إيطاليا وألمانيا وغيرهما فى القرن التاسع عشر ، ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلقان فى القرن العشرين !! حتى إذا فقد امبراطوريته فى قلب القارة دانت له أمبراطورية القلوب فى كل الدنيا فأصبح أغنية فى فم التاريخ وطنيناً فى سمع الزمن

أوليس من الفرنسيين كما قال « دوناى » من يقول اليوم : « ليته يعود ! » وهو هو الذى أجهد فرنسا وأضناها ؟ وهو هو الذى عبر عن نفسه بقوله : « أفلم يكن أفضل ألا أكون ولدت ؟ »

هكذا استهلت فرنسا القرن الماضى بأروع دكتاتورية عرفها البشر . ولما انطفأت شعلة « المارد القرشق » وبعث من أعلى الصخرة انجيله فى سنت هيلين كانت من آياته « نظرية الجنسيات » التى أوسعها المؤلف تجريحاً فى كتاب « تاريخ ثلاثة أجيال » لأنها أنشأت الدول التى زعزعت فرنسا فى القارة ، أما هنا فهو لا يناقش وإنما يعرض ويترك القارىء للاستنتاج ، فيقدم اليه معجزة أخرى من معجزات الانجيل تلك هى تسنم ابن أخى نابليون رياسة الجمهورية ، ثم تتويجه نفسه مثل عمه امبراطوراً بالقوة فى ديسمبر سنة ١٨٥١ ولا يحمل على (نابليون الصغير) كما سماه هيجو ، فهو قد شرحه فى كتابه « تاريخ ثلاثة أجيال » بما نقله عن بسمارك لما أن قابله نابليون الثالث فى بيارتز فقال : une grande incapacité inconnue حالة عجز كبرى لا يعرفها الناس !

وهنا يعني بانفيل بأن يلفت قارئه إلى طريقة احداث الانقلاب السياسي ، فيقول إن الانقلاب الذى أحدثه نابليون الصغير كالانقلاب الذى أحدثه نابليون الكبير ليجعل نفسه قنصلا عاماً ، كان يقوم على أيدى رجال فى يدهم الحكم لأن الانقلاب الناجح يجب له قوة حكومية ليستقر وليستمر

أما دكتاتورية نابليون الصغير فظلت فى الداخل طويلا ، ولكنها لم تنجح ، وفى الخارج أهدر الدم الفرنسى فى المكسيك وأنشأ مبدأ الجنسيات خصوصاً لفرنسا ، وكان الامبراطور نفسه يقول « كيف تظن أن الأمور تسير على قاعدة ؟ إن الامبراطورة ملكية ! وأنا جمهورى ! ! وليس هنالك بونابرتى إلا برزينى »

وجاءت حرب السبعين ؛ وانتهت قصة الامبراطورية ، وحاول Boulanger فى سنة ١٨٨٩ أن ينشىء دكتاتورية على أكتاف الباريسيين فلم ينجح لأنه نسى أن الانقلاب يجب أن يكون بمعرفة رجال فى دست الأحكام

بعد ذلك يرتحل بنا (بانفيل) إلى أمريكا اللاتينية رحلة تشبه المغامرات ، فيستعرض طغاة غلاظ الأكباد كمصارعى الثيران أو أشد فروسية وعجباً !! ويشرح لك عمل الماسونية وعمل القسس فى التدمير والتعمير فى دقة تفوق حلاوة القصص وتسمو إلى حكمة التاريخ . وينتقل من المكسيك إلى أمريكا الجنوبية وبطلها (بوليفار) تلميذ الثورة الفرنسية وصاحب خطة « الولايات المتحدة الجنوبية » على نسق اتحاد الشمال ؛ هذا الجمهورى الواقعى الذى كان يقول « إن الديمقراطية المطلقة كالاستبداد المطلق ، كلاهما طغيان » . ثم يتحدث المؤلف عن دول أمريكا الجنوبية وطغاتها ، ففى كولومبيا ، وفى أورجواى ، وبورجواى وشيلى والبرازيل طغاة فى كل عشر سنوات ، وفى بوليفيا التى خلعت على نفسها هذا الاسم تمجيداً « لبوليفار » ، ثم فى الأرجنتين التى طغى فيها (روزاس) الصلح الفظيع ، ودنا أحد المارة يوماً من بائع متجول يصيح : كستنا ! كستنا !!»

التاريخ في سير أبطاله

ميرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الخفيف



تتهيأ بواعث الحركات الشعبية وتتلاق تياراتها على كر السنين ، وما تزال فى نموها واطرادها حتى ينفجر سكونها بغتة عن عاصفة ، ثم لا تلبث تلك العاصفة أن تتمثل فى مظهرين : فكرة ورجل ! على هذا النحو هبت العاصفة فى فرنسا عام ١٧٨٩ ، فأما عقيدتها فكانت ما أعلنته الثورة من مبادئ ، وأما رجلها فكان ميرابو

أجل ، كان ميرابو رجل الثورة فى أولى مراحلها ، ذلك لأنه حين ألقى بنفسه فى بركانها لم تلبث أن وجدت فى لسانه ترجمانها ، وفى شخصه عنوانها ؛ فلقد نبض قلبه بمشاعرها ، وامتلأ رأسه بآمالها ، وانطلق لسانه بأناشيدها ، وكان لها أكبر عون فى حدة ذهنه ، ويقظة وجدانه ، وقوة جنانه ، وسحر بيانه ، فألقت اليه مقاليدها برهة ، فلما التوت عليه واتخذت طريقاً يفضى إلى هلكتها وجدت فيه الرجل الوحيد الذى يبذل غاية جهده ليحجزها عن وجهها ، ثم لما قضى نحبه ، لم تدر ما تأكله فأكلت نفسها .

من أجل ذلك لا تستطيع أن تفهم الثورة حق الفهم دون أن تفهم ميرابو ، وكذلك لن تستطيع أن تعرف ميرابو أصدق المعرفة إلا فى غمار الثورة ، فما كان قبل الثورة إلا رجلا كمن حوله من الرجال ، بل لقد كان من عدة وجوه دون الكثيرين منهم ، فلما أفاقت على صيحتها نفسه ، أصبح الرجل الذى ينعدم قرينه فى الرجال !

ولكن ماجره عليه نكد طالعه قبل الثورة كان ذا أثر عميق فى سيرته يوم جن جنونها ، حتى لقد كان الناس على رغم إكبارهم مواهبه فى لبس من أمره دائماً ، يفسرون آراءه واتجاهاته بما كان من ماضيه ، فصار وهو الكوكب الساطع فى سياسة وطنه يعانى مما انعقد حوله من الشبهات اضعاف مايعانيه من غباء معاصريه ونزقهم .

عودته غلظة أبيه وسوء معاملته اياه الحنق عليه والكراهية له ، وأتت سياسته على العكس مما كان ينتظر ، وكان من الأشراف الذين يحلو لهم العناد ، فلم يدع وسيلة يرى فيها كسر شوكته إلا جربها ، حتى السجن أرسله اليه مراراً بواسطة تلك الخطابات الملكية المختومة التى كان لها حكم القانون .

ولكن السجن لم يردعه ولم يصرفه عن الاسراف والاستدانة ولما هم أبوه أن يرسله اليه مرة أخرى فر هارباً مع خليلة كان قد هام بها على الرغم من احتجاج زوجته ، وعلى الرغم من حدب بعلها عليه وإكرام مثواه حين كان يزوره فى منزله .

وهنالك فى هولندا حينما أنفق ما حملته معها خليلته من المال لم يجد له مرتزقاً سوى الكتابة ، فوضع رسالة فى الحكم الاستبدادى ذاع بها اسمه بين الناس ، وأتبعها غيرها فى الاقتصاد وكانت له فيها آراء صائبة ، غير أن حياة التشريد قد ألقت به فى كثير من مواطن الزلل ، فكان يستدين مرة ويستجدى

فلما هم بالشراء منه خر الشارى صعقاً لأنه لم يجد فى سلته إلا « رؤوس رجال » ، لكن الاصلاح والتقدم المادى كان يشفع لهؤلاء الجبابرة ، بل ولمثل « بلانكو » طاغية فنزويلا فى سنة ١٨٧٥ الذى قال كلمته المشهورة وهو على سرير الموت يستدبر الدنيا ويستقبل الله

القسيس : يا بنى سامح أعداءك

بلانكو : لا أستطيع يا أبت

القسيس : كيف يا بنى ؟

بلانكو : ليس لى أعداء ... لقد قتلتهم جميعاً !!

(البقية فى العدد القادم) عبد الحليم الجندى

بعض ذوى الثراء حيناً ، ويلجأ إلى ناشرى الكتب أحياناً يعركهم ويعركونه حتى يتقاضاهم بعض المال ثمناً بخساً لرسائله

وما كان ذلك الشقاء ليقهر نفساً لا تقهر ، بل لقد أوحى اليه الانتقام من أبيه ، فلما علم وهو فى غربته بما شجر بينه وبين أمه من نزاع ومقاضاة ، كتب رسالة صغيرة يحمل فيها عليه ويرميه بالغباء والجهل فى أسلوب لاذع ، وأرسل منها عدداً إلى أمه ، ولكنها وقعت فى يد أبيه ، فبلغ الحنق من نفسه كل مبلغ واستعمل نفوذه ، فاذا بابنه وخليلته يرسلان إلى فرنسا ، حيث ألقيا فى السجن كل جزاء فعلته .

وكان السجن فى هذه المرة قاسياً إذ حرم عليه أول الأمر كل ما يخفف عنه آلام وحدته ، ولكنه استطاع أن يسحر حراسه بقوة شخصه فأتوا له بما طلب من الكتب والورق والصحف ، فكان فيها بعض السلوى لنفسه الوثابة

ولقد لبث فى الجسن بضع سنين ، أعاده بعدها أبوه إلى الحياة الطليقة ، وهو يظن أن السجن قد نال من كبريائه ، ولم يدر أن الأمر قد زاد عوده صلابة ، وعلمه كيف يروض نفسه على البأس ، وكيف يستهين بالألم إذا فكر أحد فى ارغامه ، ولذلك عاد إلى التبذير والسفه ، ولج فى عناد أبيه وسوء معاملة زوجه ، ثم أخذ ينشر من الآراء فى المال والسياسة ما أغضب عليه كبار رجال الدولة ، فهم أبوه أن يلجأ من جديد إلى خطاب مختوم ولكنه هرب وطوف فى انجلترا وبروسيا وسواهما من ممالك القارة وهو لا يكاد يجد ما يتبلغ به .

أكب فى أسره على المطالعة ، فالتهم ما حمل اليه من الكتب التهاماً ، وكانت له مقدرة خارقة على استيعاب ما يقرأ ، ثم هيأت له أسفاره أسباب الخبرة الصحيحة ، فصاحب أخلاطاً من الناس ، ورافق أغاطا من الساسة ، وشاهد ألواناً من المجتمعات ، ومارس ضروباً شتى من الأخلاق والعادات

على أن أصالته كانت أعظم من كسبه ، كما كان وحى عبقريته أكبر خطراً وأبعد أثراً فى تكييف سلوكه من كل مازودته به الكتب من آراء ، ولكن تلك العبقرية كانت فى حاجة إلى ما يستثيرها ، كانت فيما يحيط به من ظروف العيش ، وما يكتنفه من الحوادث كالجمرة طغى عليها الرماد ، فما أن تهب العاصفة حتى تظهر وتتوقد وتبهر جذوتها القلوب والأبصار ، وما كانت العاصفة إلا الثورة وهى من وطنه على الأبواب .

بيد أنك تراه الآن ولما تواته الثورة يعيش من نفسه فى ثورة ! فلقد كان بطبعه عسوفاً عنوفاً لا تعرف نفسه الهدوء كما لا يعرف جسمه الدعة ، يميل بكل ما فى طاقته إلى النضال والتحدى ، فيحمى على المجادلة ، ويستمر على الجلاد ، ولا يستقر إلا على الظفر والتفوق .

وكان قلبه الكبير مليئاً بالأحاسيس ، جياشا بالعواطف ، وكثيراً ما كانت حدة عاطفته مبعث مواقفه الفذة ومثار شجاعته حين كانت تستحكم الأزمات فلن يخرج الوطن منها إلا بشجاعته .

وكان ذا مقدرة غريبة فى إثارة العاطفة فى قلوب من حوله حتى لكأنهم منه حيال ساحر عجيب ، وهو فى فورته يتناول كل شىء ولا يكاد يتجه إلى فكرة حتى يثب إلى غيرها ، ولا يكاد يسنح له خاطر حتى تتوارد على رأسه الخواطر ، وما كان ليضيق بها ، بل لقد كانت على وفرتها أقل من أن تقنع روحه أو تشبع عاطفته .

قال أبوه يصف توثب روحه : « إن روحه كالمرآة المتحركة ينعكس فيها كل شىء ولا يستقر فيها شىء »

ولقد كان من أظهر خلاله وأعظم قوى نفسه ، شدة تأثيره فيمن حوله ، يحس من يقترب منه هيبة خفية لا يتبين مبعثها ، وينجذب إليه من يستمع له انجذابا يبعث على العجب ! ولقد بلغ من شدة تأثيره أنه كان يحمل رجال السجن على احترامه بل على محبته ، وتلك عجيبة من عجائب النفس لا تزال سراً مستغلقا على الأفهام .

على أن أبرز صفاته جميعاً وأوثقها علاقة بمستقبل حياته ، هى قوته الخطابية ، فلقد كان ميرابو خطيباً عبقرياً بكل ما تتسع له تلك الكلمة من معنى . وهو عند الكثيرين من المؤرخين أقدر خطيب شعبى فى التاريخ الحديث ، وأشد الخطباء تسلطا على أفكار سامعيه وأسرعهم توجيهاً لمن حوله إلى ما يريد .

كان فى أسلوبه رجل فن كأعظم ما يكون رجل الفن ، عرف أو على الأصح ألهم اختيار الكلمة القوية وصوغ العبارة التى تجمع إلى إشراق المعنى بعد المرمى وعمق المغزى . وكانت تواتيه عبقريته إذا تسنم المنبر فتسمو به عن مستوى الرجال ، فتراهم شاخصة أبصارهم إليه خافقة قلوبهم بما ينطق ، فاذا احتدم الجدل أو اشتد الموقف خطراً نظرت فاذا به أعظم مما كان حماسة وأسرع تدفقاً وأكثر إقناعاً ورأيت عبارته ترتفع وتعظم حتى تلائم الموقف ، وسمعت فى نبرات صوته أزيز نفسه وغليان دمه .

كان ... بولانه كنابليون فى غزواته ! تزداد عبقريته ملابسة له كلما ازداد الموقف من حوله هولا . ولقد فاه بأبلغ عباراته ... بمدها أثراً فى نفوس سامعيه فى مواقف الحماسة الفائرة كأن كلماته الحيتان الضخمة لن تظهرها إلا العاصفة !

وكان له فضلا عن ذلك من هيبة منظره وقوة صوته ورنين جرسه وشتى إشاراته كل معدات الخطيب . كان كبير الجرم ، قوى الجسم ، عريض المنكبين ، عظيم الصدر ، ترى فى وجهه الجاد العابس آثار جراح اندملت كأنك تلمح فيها صرامة الحوادث وصروف الزمن ، وكانت ترتسم ملامح وجهه بانفعالات نفسه ، كما كانت تلتمع عيناه وتختلجان فتبعثان الرهبة أو تثيران الشفقة . أما عن قوة أعصابه وضبط نفسه وصدق فراسته وتفهم الغاية التى يرمى إليها وتخير أقرب الطرق وأسهلها إلى تلك الغاية فكان فى ذلك كله مضرب المثل بين معاصريه .

والآن فلندع مقدرته على الخطابة حتى نشاهد آثارها فى مجلس طبقات الأمة وفى الجمعية الأهلية ، ويجمل بنا أن نتبين قبل انعقادها بعض آرائه السياسية .

لم تك أصالة ذلك الرجل الفذ فى السياسة أقل من أصالته فى الخطابة ، فلقد جمع إلى حماسة القلب حدة العقل ، وإلى ثورة العاطفة اتزان المنطق ، وإلى جموح الخيال وضوح المنهج ، وإلى وحى العبقرية شمول النظر ، وصدق التجربة واتساع الخبرة ، وإن المرء ليدهش حقا إذ يرى ذلك كله فى رجل . ولقد صدق جوته حين وصفه فى قوله : ميرابو .. تلك الأعجوبة ! ! !

كان لهذا الزعيم غرض يرمى اليه ونهج يسير عليه . نشط قبيل الثورة فى نشر مبادئه ، عند ما عاد من برلين للمرة الأخيرة ، وكان قد أوفد اليها من قبل الوزير كالون فى مهمة سياسية عام ١٧٨٧ أى قبل هبوب العاصفة بعامين ، ويخيل إلى أن الوزير إنما أراد إبعاده ، فلما استقل ميرابو ما كان يصله من أجر عاد إلى وطنه مغيظاً محنقاً فشهر قلمه للطعن فى كالون ونكر صديق الشعب ، وابتدأ الناس يحسون خطره كناقد سياسى ، نعم أحس الناس روحاً جديدة فى كتاباته واستشعروا أن صاحبها يمتاز ممن عرفوا من الرجال . اقرأ مثل قوله فى نقد نكر « ليعلم الذين يحسبون أنهم لا يستطيعون أن يحبوا الله خالقهم أو أن يحبوا الملك والوطن إلا أن يعبدوا نكر ، أنهم فى ضلالتهم يعمهون . هل فكروا فى أن تفاخره بأنه يستطيع أن يعقد أى قرض دون زيادة فى الضرائب موضع عار لا موضع فخر ؟ هل فكروا فى أنه بذلك قد استطاع أن يستهوى أولى الأمر فى هذه الدولة ، فيدفع بهم إلى حرب تبرأ منها الانسانية [1] ، فضلا عما يتبعها من خراب مالى ؟ وهل يغنيهم ما يعلمون من حسن خلقه وطيب نفسه عن نجاح سياسته كوزير ؟ » إقرأ هذا وغيره تر أن الثورة قبل هبوبها قد اهتدت إلى زعيمها ، وتلق الرجل فى مستهل مرحلة جديدة فى حياته العجيبة ، مرحلة الجد الحكيم والوقار العاقل والجهد المتواصل .

راح يعلن للناس أنه عدو الامتيازات والاستبداد ، وأنه لن يقعد عن الجد حتى يرى الناس سواء أمام القانون ، ويرى الحرية حقاً يتمتع به كل فرد ، ويرى التعليم نورا ينفذ إلى جميع الطبقات ، والرخاء المادى حصناً يقى الوطن غائلة الفاقة . وهل كان للناس مطمع وراء هذا ؟ وهل كانوا يتغنون بغير هاتيك الأناشيد ؟ ولكن ميرابو لن يقبل أن يسعد الشعب على حساب الملكية ! وإذاً فهو يسعى من جانب آخر إلى أن يكون للملكية نفوذها وسيادتها على أن تستمد ذلك من الشعب صاحب الحق .

ولئن كان عمقت من أعماق قلبه الفوارق بين الطبقات وقيود العهد الأقطاعى ، فان بدنه ليقشعر فرقا من الفوضى وإنه ليرى الطامة الكبرى فى جموح الشعب وتعديه حدوده .

بهذه المبادىء وبما عرف عنه من مقدرة خطابية فائقة ، تقدم ميرابو للانتخاب فى مدينة إكس ليكون نائباً عن العامة فى مجلس طبقات الأمة ، بعد أن نأى الأشراف بجانبهم عنه . وعلى الرغم من كيد خصومه له خرج من المعركة ظافراً داوى الصيت

(يتبع) **الخفيف**

(١) مشيرا إلى الحرب فى أمريكا وكانت فرنسا على رغم عسرها المالى قد أرسلت حملة لمساعدة أهلها

يوم الوقفة

عرفات...

للأستاذ علي الطنطاوي

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ »

هنالك ينكشف الغطاء، وتنفتح أبواب السماء، فيتوجه الحجاج إلى الله بقلوب انزاحت عنها ظلمة الأهواء والشهوات، وأشرقت عليها الأنوار، فسمت حتى رأت الأرض ومن عليها ذرّة صغيرة تحملها رياح القدرة، ثم سمت حتى سمعت تسبيح الملائكة بألسنة الطاعة، ثم سمت حتى تدبرت القرآن غضاً غريضاً، كأنما نزل به الوحي أمس، وسمعت النداء من جانب القدس: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ». فأجابت: لبيك اللهم لبيك! فرددت بطاح عرفات، وأرجاء الحرم، وردّدت السموات السبع والأرضون السبع: لبيك اللهم لبيك!

هنالك تتنفس الانسانية التي خنقها دخان البارود، وعلامات الحدود، وسيد ومسود، وعبد ومعبود، وتحيا في عرفات حيث لا كبير ولا صغير، ولا عظيم ولا حقير، ولا مأمور ولا أمير، ولا غنيّ ولا فقير

هنالك تتحقق المثل العليا التي لم يعرفها الغرب إلا في أدمغة الفلاسفة وبطون الأسفار، فتزول الشرور، وترتفع الأحقاد، وتمّ المساواة، ويسود السلام، ويجتمع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في صعيد واحد، لباسهم واحد، يتوجهون إلى ربّ واحد، ويؤمنون بنبي واحد، ويدينون بدين واحد، ويصيحون بلسان واحد: لبيك اللهم لبيك!

هنالك تظهر المعجزة الباقية، فتطوى الأرض ثم تؤخذ من أطرافها، حتى توضع كلها في عرفات، فتلتقي شطآن إفريقية بسواحل آسية، ومدن أوربة بأكواخ السودان، ونهر الكنج بنهر النيل، وجبال طوروس بجبال البلور، فيعرف المسلم أن وطنه أوسع من أن تحدّه على الأرض جبال أو بحار، أو تمزقه ألوان على الصور فوق ألوان، أو تفرقه في السياسة خرق تتميز من خرق، وأعلام تختلف عن أعلام

ذلك لأن وطن المسلم في القرآن، لا في التراب والأحجار، ولا في البحيرات والأنهار، ولا في الجبال والبحار: « إنما المؤمنون إخوة »، لا « إنما المصريون .... »، ولا « إنما الشاميون ... »، ولا « إنما العراقيون .... »

هنالك يتفقد الاخوة إخوتهم، فيعين القوى الضعيف، ويعطى الغني الفقير، ويساعد العزيز الذليل، فلا ينصرفون من الحج إلا وهم أقوياء أغنياء أعزاء

هناك يذكر المسلم كيف مرّ سيد العالم صلى الله عليه وسلم بهذه البطاح مهاجراً إلى الله، تاركاً بلده التي نشأ فيها، وقومه الذين ربي فيهم، وكيف جاء حتى وقف على الحزورة، فنظر إلى مكة، وقال: « إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وإنك لأحب بلاد الله إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت ». ثم يستقبل هذه الصحراء الهائلة، ليس معه إلا الصديق الأعظم، يتلفت كلما سار ليتزوّد بنظرة من مكة حتى غابت وراء الأفق الفسيح، فانطلقا يؤمان الغار

هل علمتْ هذه البطاح أن هذا الرجل الفرد الذي قام وحده في وجه العالم كله، يصرع باطله بقوّة الحق، ويبدّد جهالته بنور الاسلام، ويهدى ضلالته بهدى القرآن، والذي فرّ من مكة مستخفياً، سيعود اليها بعشرة آلاف من الأبطال المغاوير، فتفتح له مكة أبوابها، وتتهاوى عند قدميه أصنامها، ثم تعنو له الجزيرة، ثم يخضع لدينه نصف المعمور؟

هل علمت هذه البطاح أن هؤلاء النفر الذين مروا بها هاربين

من جبروت قريش وسلطانها ، سيعزون حتى تدين لهم قريش ، ثم يعزون حتى يرثوا كسرى وقيصر فى أرضيهما ، ثم يعزون حتى يرثوا الأرض ومن عليها ، وسيكثرون حتى يبلغوا أربعمائة مليون ، وسيتفرقون فى الأرض داعين مجاهدين فاتحين ، ثم يجتمعون فى عرفات حاجين منيبين ملبين : لبيك اللهم لبيك !

هنالك وقف سيد العالم صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يعلن حقوق الانسان ، ويقرر مبادئ السلام ، وينشر الأخوة والعدالة والمساواة بين الناس قبل أن تنشرها فرنسا بألف عام :

أيها الناس :

اسمعوا منى أبين لكم ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا

أيها الناس :

إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس :

إنما المؤمنون إخوة ، لا يحلّ لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس :

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وهنالك وقف يعلن انتهاء الرسالة الكبرى التى بعثه الله بها إلى الناس كافّة ، ويتلو قوله جلّ وعزّ : « اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » ؛ ويبعث صحابته ليحملوا هذه الرسالة إلى آخر الأرض ، ثم يحملوها إلى آخر الزمان

فحملوها فأنشأوا بها هذه الحضارة التى استظل بظلها الشرق ، ويستظل بظلها الغرب

* * *

فى عرفات تتجلى عظمة الاسلام ، دين الحرية والمساواة والعلم والحضارة ؛ ومن عرفات يسمع المسلمون داعى الله يدعو : حىّ على الصلاة ! حى على الفلاح ! فيجيبون لبيك اللهم لبيك ! وينطلقون ليعملوا للآخرة كأنهم يموتون غدا ، ويعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبدا

* * *

فلتفسد الأرض ، ولتطغ الشرور ، وليعصف الحديد ، ولينفجر البارود ، ولتغُص الانسانية فى حمأة الرذيلة إلى العنق ، فانه لا خوف على الفضيلة ولا على الحق ولا على السلام ، مادام فى الأرض « عرفات » ، وما دام فى الجو هذا الصوت القدسى المجلجل :

« لبيك اللهم لبيك » !

على الطنطاوى

العراق فى مصر

للشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقى الزهاوى

وهى آخر ما نظم الفقيد الكريم

حمّلها شباب العراق تحية كريمة لشباب مصر

— ١ —

أتى بعد شوق حافز للمحبينا ... إلى مصر شبانُ العراق محيينا
أولئك شبان سنقطف عن هوى ... بها من رياض العلم ورداً ونسرينا
رضينا بما فى مصر من عبقرية ... وما كل أرض تنبت العلم ترضينا
وكان منانا أن نرى مصر يقظة ... فأفرحنا جمعاً بلوغ أمانينا
سعدنا بمصر والسعادة نعمة ... لحينا تلاقينا وحين تجافينا
وليس لنا عن حبّ مصر تنكّب ... فما كان هذا الحبّ إلاّ لنا دينا
وما شعراء النيل إلاّ عنادل ... على سرحة الآداب تشدو فتشجينا

— ٢ —

ألا إن مصراً موطن الأدب الحر ... سلام على مصر سلام على مصر
وما مصر إلا البحر يلمع درّه ... ونحن بمصر غائصون على الدر
لقد جمعتنا وحدة عربية ... وأقرب منها بيننا وحدة الفكر
أرى فى لقاء الروح للروح فرحة ... تفوق لقاء العين والأوجه الغر
وإن بنى مصر الذين تثقفوا ... إذا طلعوا كانوا من الأنجم الزهر
حججناك طوّافين والدافع الذى ... حدانا هو الايمان بالأدب الحر
وليس كايمان المنافق إنه ... إذا لم يكن كفراً فشر من الكفر

— ٣ —

وجدنا بنى مصر الفتاة كواكبا ... تضىء فتمحو بالضياء الغياهبا
إذا غاب نجم لاح نجم وإنما ... تفوق بمصر الطالعاتُ الغواربا
ألا فليمم مصر من طلب العلا ... ومن كان فى المجد المؤثل راغبا
وما أسعد الورّاد للعلم إنهم ... إذا صدروا كانوا نجوماً ثواقبا
إذا ما تلقوا من أساتذة لهم ... دروساً حسبت الودق ينصبّ ساكبا
قصدنا فقاسينا متاعب جمة ... فلما رأيناكم نسينا المتاعبا
نصافحكم فيها مصافحة الذى ... يريد لأعلام الهدى أن يقاربا

— ٤ —

حججنا بلاد العبقرية والنبل ... نطوف بأركان الثقافة والفضل
معاهد فيها للهدى يشب الفتى ... وليس بها من سار يمشى على مهل
تربّى عقولَ النشء حتى تقيمها ... وما قيمة الإنسان إلاّ من العقل
وكانت فتاة العصر أنقى من الندى ... وكان الفتى للمجد أنفى من النصل
وليس الذى فى البحر يسبح زاخراً ... كمن كان فى الغدران يسبح والضحل
وليس غنى مصر من المال ناشئاً ... ولكنه فى العلم والأدب الجزل
وفى عزة النفس التى قد أبت لها ... على ما بها أن تستنيم إلى الذل

— ٥ —

على العقل فى كل الأمور المعوّل ... ولولاه لم ينحل للمرء مشكل
وما العقل فى الإنسان إلاّ ابن رأيه ... تولّد فيه آخراً وهو أوّل
وللعقل أنوار بها يهتدى الفتى ... وأبهجُ بأنوار لها العقل يرسل
تبدل فى الناس العقول بغيرها ... ولكن نفس المرء لا تتبدل
وربّ عقول لم تصادف مثقفاً ... فتلك بلا هاد من العلم تعمل
يمثل مصراً فى العراق جهابذ ... ونحن بمصر للعراق نمثل
وما العلم فى بغداد إلا كصيّب ... توالى لأدران الجهالة يغسل

— ٦ —

نصافح إخواناً لنا قد تثقفوا ... فساروا جماعات ولم يتوقفوا
فلن فرقت ما بيننا شقة النوى ... فانا جميعاً للعروبة نهتف
وإن عصفت ريح بكم فى ملمّة ... فتلك بنا يا أمة النيل تعصف
وإن أبعدت أجسامنا عن جسومكم ... فأرواحنا مجموعة تتعرف
ومصر هى اليمّ الذى ظلّ زاخراً ... وإنا وإياكم من اليم نغرف
غداً ستشب الحرب صاخبة اللظى ... فتزهق أرواحاً وتمحو وتتلف
وإن تلاميذ المدارس فى غد ... جنود لصون الموطنين تألّف

— ٧ —

لنحن بمصر فى الثقافة نقتدى ... وبالنجم فى تلك المطالع نهتدى
وليس بنا للأمس من لفتة الهوى ... ولكننا نرنو بشوق إلى الغد
ونحترم الرأى القديم وأهله ... ونهتف للتجديد أو للتحدد

على قبر الزهاوى

بعد أن وُورى التراب شيخ الشعراء وفقيد العرب وقف على قبره الدكتور عبد الوهاب عزام فنثر عليه هذه الزهرات :

اليوم يقع هذا النسر بعد طول تحليقه !

اليوم يصمت هذا البلبل بعد طول تغريده !

اليوم يظفر هذا الجواد بالجمام !

اليوم يستريح هذا الفارس من الآلام !

اليوم تسكن هذه النفس الثائرة !

اليوم تخمد هذه النائرة !

اليوم يرقد الزهاوى فى قبره !

كل نفس ذائقة الموت ، و إنا لله وإنا إليه راجعون . و إنما الخالد من خلدته آثاره . وسيبقى شعر الزهاوى مدويًّا بعد مماته ، كما كان مدوياً فى حياته ، ليبعث العزائم الراقدة ، ويشعل النفوس الخامدة

ستتلقى مصر والبلاد العربية نعى الزهاوى كما تلقى العراق والبلاد العربيـة نعى شوقى ، فتتجاوب بلاد العرب بالرثاء ، وتتبادل العزاء . ونسأل الله أن يعوضها فى شاعر العربية خيراً

أيها الشاعر العظيم ستذهب وذكراك بيننا خالدة !

أجميلُ لا تبعد فذكرك خالد   ألذكر للانسان عمر ثان

ثم وقف الأستاذ الشاعر معروف الرصافى فألقى هذه الأبيات :

أيها الفيلسوف قد عشت مُضنى   مثل مَيْتٍ وصرت بالموت حيا

ما حيـاة العظيم إلا خلود   بعـد موت يكون للجسم طيا

سوف يبقى بين الورى لك ذكر   ناطق بالبقاء لم يخش عِيا

نرى أن فى التجديد شيئاً مخلداً   ولكنما التقليد غير مخلد

وذاك طريق للأديب معبد   وهذا طريق ظل غير معبّد

وما العلم إلا للسعادة سلم   فمن يتخذ منه الوسيلة يسعد

فإن تبتعد عنا السعادة تقترب   وإن تقترب منا التعاسة تبعد

جميل صدقى الزهاوى

أنت فرد فى الفضل حياً ومَيْتا   حزت فى الحالتين ذكراً عَليا

سوف أبكى عليك شجوا و إنى   كنت أبكيك فى الحياة شجيا

ثم تلاه السيد محمد مهدى الجواهرى فألقى هذه القصيدة الباكية :

على رغم أنف الموت ذكرك خالد   ترن بسمع الدهر منك القصائد

نعيت إلى غر القوافى فأعولت   عليك من الشعر الحسانُ الخرائد

وللعلم فياضاً فماجت مصادر   عُنيت بها بحثاً وجاشت موارد

وفلسفة أطلعت فى الشعر نورها   هى اليوم ثكلى عن جميل تناشد

حلفت يميناً لم تشبها اختلاطة   وقلبى على دعوى لسانىَ شاهد

لقد كنت فخراً للعراق وزينة   تزان نواديه بهـا والمعاهد

وكنت على خصب العراق شاهدا

إذا أعوزتنا فى التباهى شـواهد

وكنت أرق الناس طبعاً ونكتة   وألطف من دارت عليه المقاعد

وأنت ابتعثت الشعر بعد خموله   نشيطاً لخوض الشعر بعدك راكد

ثوى اليوم فى هذى الحفيرة عالم   بأسرارها ، لله بالعقل ناشـد

أقام على العلم الصحيح اعتقاده   عدوٌّ لأشباح الخرافات طارد

وكان نقياً فكرة وعقيدة   عزيزاً عليه أن تسف العقائد

يقرر أن الدين حب ورحمة   وعدل ، وأن الله لا شك واحد

وأن الذى قد سخر الدين طامعاً   يتاجر باسم الله ، لله جاحد

ثوى اليوم فى هذى الحفيرة شاعر   على الظلم محتج عن العدل ذائد

وشيخوخة مدت على الكون ظلها   تكافح عن آرائها وتجالد

أبا الشعر ! إن الشعر هذا محله   فقد نُصت الأسماع والجمع حاشد

وهذى جيوش الشعر والعلم تبتغى   لهـا قائداً فذاً فهل أنت قائد

فأين قصيد قد نظمت فريده   وأين من الشعر البديع الفرائد

وأين النكات المؤنسات كأنها   حدائق تُسقى بالندى وتعاود

وأين العيون اللامعات زكانة   وغائب تبـدو فوقها ومقاصد

جميـلُ اعان الرافدين بثالث   من الشعر تميه بحور روافد

وكان حياة للنفوس ورحمة   تغاث بها هذى النفوس الهوامد

تطاوعه غر المعانى كأنها   وصائف تبغى أمره وولائد

أقول لرهط الشعر يبغون باعثاً   عليه : تثير الشعر هذى النضائد

أندلسيات :

٢ – ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر أبو مروان الطُّبْني

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

قال ابن بسام : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة ألوية الأقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر ، اشتهار المنازل بالبدر . أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتثار شمل الطاعة ، وأناخوا في ظلها ، ولحقوا بسروات أهلها . . . وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمي الطبني هو أول من بنى بيت شرفهم ، ورفع في الأندلس صوته بنباهة سلفهم . قال ابن حيان : وكان أبو مضر نديم محمد بن أبي عامر أمتع الناس حديثاً ومشاهدة وأنصعهم ظرفاً ، وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة ، وآخذهم بقلوب الملوك والجلة ، وأنظمهم لشمل إفادة ونجعة ، وأبخلهم بدرهم وكسرة ، وأذبهم عن حريم نشب ونعمة ، له في ذلك أخبار بديعة من رجل شديد الخلابة يضحك من حضر ، ولا يضحك هو إذا ندر ، رفيع الطبقة في صنعة الشعر ، كثير الاصابة في البديهة والروية . انتهى كلام ابن حيان . قال ابن بسام : وشعر أبي مضر ليس من شرط هذا المجموع لتقدم زمانه ؛ فأما ابنه مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل إلى المشرق وسمع من جماعة المحدثين بمصر والحجاز ، وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة . . إلى أن قال : وجدت في بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال : لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبي عامر على الحذلي في مجلسه وضربه ضرباً موجعاً وأقر بذلك أعين مطالبيه ، قال أبو مروان الطُّبْني فيه :

شكرت للعامري ما صنعا ... ولم أقل للحذيلي لما
ليث عرين غدا بعزته ... مفترساً في وجاره ضبعا
لا برحت كفه ممكَّنَةً ... من الأماني فنعم ما صنعا
وددت لو كنت شاهداً لهما ... حتى ترى العين ذل من خضعا
إن طال منه سجوده فلقد ... طال لغير السجود ما ركعا

وابن رشيق القائل قبله :

كم ركعة ركع الضبعان تحت يدي
ولم يقل سمع الله لمن حمده

والعرب تقول فلان ركع لغير صلاة إذا كنوا عن عهر الخلوة . .

قال ابن بسام : ولما صنفت كتابي هذا عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء ، أجريت ههنا طرفاً (١) من مليح التعريض ، في إيجاز القريض ، مما لا أدب على قائليه ولا وصمة على من قيل فيه . والهجاء ينقسم قسمين : فقسم يسمونه هجو الأشراف ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ، ولا هجراً مستبشعاً ؛ وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل . انما هو توبيخ وتعيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشي في بني العجلان ، وشهرة شعره منعتني عن ذكره (٢) . واستعدوا عليه عمر وأنشدوه قول النجاشي فيهم فدرأ الحد

(١) وفي بعض النسخ طائفاً بدل طرفاً

(٢) قال ابن رشيق في كتابه العمدة في باب من رفعه الشعر ومن وضعه : وبنو العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف إلى أن هجاهم به النجاشي فضجروا منه وسبوا به ؛ واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ! فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة ... فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال : =

هلموا إلى قبر الزهاوي نقتنص ... به نفساً من روحه ونطارد
وإن خيالا يملأ الشعر رهبة ... سكون على قبر الزهاوي سائد
وحجوا إلى بيت هو الفن نفسه ... أنارت «فينيس» ساحه وعطارد
فإن بيوت الشاعرين مناسك ... وإن قبور النابغين معابد

أبا الشعر والفكر المنبه أمة ... عزيز علينا أنك اليوم راقد
وأن الذي هز القلوب هوامداً ... وحركها في الترب ثاو فهامد
وأن فؤاداً شع نوراً وقوة ... هو اليوم مسودُّ الجوانب بارد
فهل أنت راض عن حياة خبرتها ... ممارسة أم أنت غضبان حارد
أضاعوك حياً وابتغوك جنازة ... وهذا الذي تأباه صيدٌ أماجد

بالشبهات . وفعل مثل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة وسأله أن ينشده ما قال فيه فأنشده قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فسأل عن ذلك كعب بن زهير فقال : والله ما أودّ له عما قال حمر النعم ... وقال حسان لم يهجه ولكن سلح عليه بعد أن أكل الشُّبْرُم (١) . فهمّ عمر بعقابه ثم استعطفه بشعره المشهور .. وقد قال عبد الملك بن مروان يوما : أحسابكم يا بني أمية (٢) فما أودّ أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال فيّ :

تبيتون فى المَشْتَى مِلاءً بطونكم
وجاراتكم غَرْثَى يبتن خمائصا

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال : أنحن نفعل بجاراتنا هذا ؟ ودعا عليه . . . فما ظنك بشيء يبكي علقمة بن علاثة وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال : حس ! . . . وقد كان الراعى يقول : هجوت جماعة من الشعراء وما قلت فيهم ما تستحى العذراء أن تنشده فى خدرها . ولما قال جرير :

فغُضّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

أطفأ مصباحه ونام — وقد كان بات ليلته يتململ — لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه . قال الراعى : فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا

اليه حتى أتينا حاضر بنى نمير فخرج الينا النساء والصبيان يقولون قَبّحكم الله وقَبّح ما جئتمونا به . . والقسم الثانى هو السباب الذى أحدثه جرير أيضاً وطبقته ، وكان يقول إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيّرت به قبيلة ، وهو الذى صُنّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه ، فان أبا منصور الثعالبي كتب منه فى يتيمته ما شانه اسمه ، وبقى عليه اثمه .

وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال : عاتبت بعض الاخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبي ، وكان آخر الشعر الذى خاطبته به هذا البيت :

وإنى على ما هاج صدرى وغاظنى ليأمنني من كان عندى له سر

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ؛ ولم يزل يقلق به حتى بكى إلىّ منه بالدموع . وهذا الباب ممتد الاطناب ، وبكنى ما مر وعز منه فى تضاعيف هذا الكتاب . ومن شعر أبى الحسن علىّ بن عبد العزيز بن زيادة الله الطبني مما أخذته عنه قوله :

كم بالموادج يوم البين من رشأ يحفو عليه وشاح جائر قلق
وكم برامة من ريم يفارقها لهفان يثنيه عن توديعها الفرق
ونرجس كفرند السيف ساومنى ممالا بنسيم عَرفُه عبق
نادمته وشباب الليل مقتبل والنجم كَفٌّ يحيينا به الأفق
وفتية كنجوم السعد أوجههم فى أوجه الحادثات الجُوز تأتلق
نلهو برقراقة صفراء صافية يكاد ينجاب عن أضوائها الغسق
يسعى بها مرهف كالغصن نعّمه ماء النعيم عليه النوُر والورَق

وأنشدنى أيضاً :

يا سالياً عاشقيه وعاشقاً كل تيه
ومَن مداى ونقلى بوجنتيه وفيه
هلا حزيت فؤادى ببعض مالك فيه

وأنشدنى أيضاً لنفسه :

عجباً أن يكون ساكن قلبي راتعاً منه فى بساتين حبي
ويجازى على الوفاء بغدر حسبى الله ثم حسبى وحسبى
جازنى كيف شئت لا أترك الذ ب إذا كان فرط حبك ذنبي

= قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك . . قالوا فانه قال :
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل
فقال عمر : ذلك أقل للسكاك — يعنى الزحام — قالوا فانه قال :
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه . قالوا فانه قال :
وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر : كلنا عبد وخير القوم خادمهم . . فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال ما أسمع ذلك ، فقالوا فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله ، فقال ما هجاهم ولكن سلح عليهم . وكان عمر أبصر الناس بما قال النجاشى ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات ، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشى وقيل إنه حده . . .

(١) الشبرم حب يشبه الحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوى ، وقيل إنه نوع من الشيح (٢) وفى نسخه احفظوا أحسابكم يا بنى أمية

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٣٢ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

تعليق المؤلف على فلسفة نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

تتمة

أما النظر الى نيتشه من حيث الوجهة الأخلاقية فقد لامه النقاد على غرائزه القاسية وأنانيته الطاغية، وقسوته البالغة على الضعفاء. على أن له بعض آراء لو لم يسيء الناس فهمها لآلت الى نتيجة أخلاقية حسنة؛ فليس يكفي المرء أن يكون فوضوياً هداماً طارحاً عن ظهره التقاليد ليحيا محققاً مذهب نيتشه. وليس نيتشه رفيق أولئك الذين يمشون بالسوء رمان. وهذا نبيه زرادشت كان يطالب الى الذين يرغبون اتباعه أن ينفذوا مذهبه بقسوة وشدة

« هل أنت شريعة قوية؟ هل أنت شريعة جديدة؟ هل أنت حركة أولى؟ هل أنت دولاب يدور حول نفسه؟ والأسفاه! ما أكثر أولئك الذين يدبهم تعطشهم إلى الصعود! وأولئك الطامعين الذين يضطربون بيأس! أرني أنك لست بواحد من هؤلاء الظامئين ولا الطامعين

والأسفاه! هنالك كثير من الأفكار العظيمة التي ليس شأنها إلا شأن النسمة تهب ثم تتلاشى

إنك تقول إنك حر، ولكني أريد أن أعرف الفكرة التي تسيطر عليك، لا النير الذي زحت تهزه

هل أنت حقاً من أولئك الذين يجدر بهم أن يهزوا نيراً؟ إن منهم من طرحوا كل ما منحتهم بعض القيم، بطرحهم ثوب العبودية والارهاق حيث كانوا يعيشون. »

ونيتشه ذاته يعلن بأن مذهبه لا يحمله إلا إلى طائفة مختارة تستطيع حمله، والقيام بأعبائه؛ وأما الجماعات الأخرى فليس عليها إلا الاذعان والطاعة والحياة بإيمان. فلا يجدر بنا والحالة هذه أن نسفه آراءه بحجة أن بعض الضعفاء العاجزين المنتفخة نفوسهم زهواً وكبراً قد أخذوا ببعض تعاليمه واقتبسوا نتفاً من مذهبه ليحققوا مطامعهم وليشبعوا جوع أنفسهم وأنانيتهم وليسموا إلى هدف العظمة. إن نيتشه هو ذاتي قبل كل شيء، ويكفي اعتقاده هذا أن يهيج الناس عليه. فالانسان الحاضر هو « ذاتي وغير ذاتي » في وقت معاً. يرى في الحالة الأولى نفع نفسه وفي الحالة الثانية نفع غيره، ويتحرى عن سعادتهم كما يتحرى عن سعادته. على أن النزاع بين هاتين الحالتين هو نزاع عنيف، وقد تقوى في الانسان حالة منهما دون أخرى على حسب ميوله القلقة التي تميل به إما إلى ذاته وإما إلى المجتمع. فبعضهم تغلب فيه الذاتية على غيرها، فيضحي بمصالح الغير في سبيل مصلحته؛ وبعضهم يضحي بمصلحته عاملاً على صيانة مصالح الغير. أما نيتشه فهو من القائلين « بالذاتية » الذين يحبون ذواتهم؛ ومذهب أهل حضارة العصر إنما يتجلى في اعتناق مذهب المحبة الشاملة؛ وهذا الاختلاف بين نيتشه وبين معاصريه يكفي لأن يثير في خصومه عداوة عميقة وخصومة عنيفة على هذا الذي لا يرى رأيهم في اتخاذ محبة الغير مثلاً أعلى

على أن هاتين الحالتين ليستا من الحالات المعينة التي لا يتخطاها الانسان ولا يتعداها، إذ لست أرى أحداً مال بكليته إلى حالة وقطع كل اتصاله بالأخرى. فهنالك درجات متفاوتة في الغرائز، وهذه الدرجات قد تتغير وتتطور بحسب الزمن والعصر

وهذا كقول أبي بكر بن عمار:

لئن كان ذنبي للزمان محقق فذلك شيء لست منه أتوب

وقول عباس بن الأحنف:

إن كان ذنبي في الزيارة فاعلمي أني على كسب الذنوب مجاهد

(يتبع)

عبد الرحمن البرقوقي
منشئ البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

تصويب

جاء في السطر الثالث عشر من الصفحة نمرة ٢٩٤ بالعدد الماضي بالعمود الثاني مانصه: « وأمعَدُ من هذا في باب الخبط والتخليط أن خطبة الذخيرة الحقيقية ... الخ »

والصواب: « وأقمد من هذا في باب التخبط والتخليط أن الخطبة المثبتة في النسخ الموجودة من الذخيرة هي خطبة مفتعلة؛ أما خطبة الذخيرة الحقيقية فهي غير هذه الخطبة كما سيمر بك »

البرقوقي

والمحيط . على أننا سنحكم على فلسفة نيتشه الآن حكما عقلياً واضحاً

إن فلسفة نيتشه هي مثال من أجمل الأمثلة الذاتية الارستقراطية ؛ مثال جميل حي منطق ، يحتوى على هدى لكل من يريدون أن يكوّنوا حياتهم ويجعلوا منها مثالاً واحداً يتحدون معه ، كما هو الأمر في فلسفة « تولستوى » المناقضة لفلسفة نيتشه . على أن الحل الذى أعطاه نيتشه المسألة الأخلاقية يتراءى لنا أن احتماله شديد على الأنفس ، فى الناحية التفكيرية والناحية العملية ، وإن تنفيذ مذهب « السوبرمان » ليفتقر إلى جهود قل أن توجد ؛ ونيتشه ذاته يعلن بأن أمثال هؤلاء الأفراد الذين يجد فيهم العبقرية لم يكونوا إلا وليدى المخيلة والخيال

وهكذا يتراءى لنا أن نيتشه لم يخلق ليكون زعيم مدرسة فلسفية حقيقية . إنه سيبقى وحيداً فريداً ، أمة وحده بين الناس ، كما كان فى حالة تفكيره وتأمله ؛ على أن مذهبه تارك وراءه تأثيراً كبيراً . ينمى فى روح الفرد وروح الشعب « الأفكار الذاتية » ، وهذا التأثير يتبع خيره وشره الجبلة الخلقية التى تلتصق بالأفراد والشعوب . فهو قد يعمل على تهديم طبائع طغت فيها الأنانية على كل شيء حتى جاوزت حدها ؛ وقد يعمل على رفع بعض الطبائع ، يدرأ عنها كل آفة ويحميها من كل خطر من الأخلاق والديموقراطية والزهد

يبدو لى أن عمل نيتشه له أثر قوى فى بيئة كبيئتنا ، ولا ريب فى ذلك ، فان ما أراه فى مظاهرنا الاجتماعية لا يدل على فيض فى الحماسة المادية والخلقية . قليل من المفكرين الذين هم فى مستواه يعرفون أن يسوقوا الانسان إلى معرفة نفسه والوقوف إزاءها مجرداً ؛ وقليل من أصحاب جمهورية الفضيلة من يمزقون – فى وضح النهار – هذه الأغشية الرقيقة والأكاذيب الخفيفة التى تستر بها النفس ضعفها وجبنها وذلها وعجزها ؛ وقليلون من علماء النفس من وضح وأبان وأحسن التبيان عن الحقيقة الذليلة التى ترتدى هذه الأثواب المزركشة : أثواب الشفقة ومحبة القريب والزهد

إن نيتشه كالطبيب الصارم الذى لا تدخل قلبه الشفقة ؛ والملاح الذى يحمله الى مرضاه ، علاج قاس خطر استعماله ، ولكنه علاج يخلق العزم والقوة . إنه لا يعزى من يأتيه شاكياً ، ولكنه يترك الشاكين تسيل الدماء من جراحهم ليجعلهم أكثر قسوة وأشد احتمالاً للألم . فهو إما أن يشفى مرضاه شفاء صحيحاً أو يقتلهم ؛ قد يخشاه الناس للمرة الأولى ويفرون من مباضعه ، ويلقونه باحتراس ووجل ! يتساءلون : أليس هذا الانسان شريراً جلاداً ؟ يفرون من طريقه ويختلفون إلى أطباء خفيفة أناملهم ، لينة كلماتهم ، حلوة علاجاتهم ، خلية تعاليمهم من الشدة والصرامة ، ولكن نيتشه يلوذ به فريق من المخلصين له ولأنفسهم ، يهوون صرامته ، ويحبون استقامته وخلقه كله . وفى اعتقادى أن هؤلاء لم يكونوا مخدوعين باعجابهم به وإخلاصهم له ، وقد علموا أنه – ليس عن صرامة قلبه ولا معرفته للألم معرفة خاطئة – قد غدا صارما قاسيا على الانسانية المتألمة ؛ وحياته كلها مشحونة بالحوادث البالغة والمصائب الكبيرة ؛ وحظه السيء الفاجع قضى عليه بأن يكون صادفاً عن الاشفاق على ضعف الانسانية وفاقتها . إنهم ليقفون بخشوع وجلال إزاء المفكر الجبار الذى لم يخضع للذل ولم يلعن الوجود ، برغم مرضه العضال . وظل على غبطته ورضاه فى الحالة التى كان يصارع فيها الموت والجنون دون أن ينفذ اليه الوهن والضعف ، متمماً أنشودته المؤثرة فى تمجيد الحياة الفنية الفياضة المخصبة ، مناضلا حتى النهاية – الألم الذى غلب على عقله ، ولم يستطع أن يقهر إرادته الواعية

لماذا أكرمت نيتشه ؟ وما الفائدة التى يجنيها العقل العربى منه ؟

حقاً إن بينى وبين نيتشه أسباباً لا أظن انقطاعها يسيراً ؛ وقد اختلفت اليه ليالى كثيرة وليس بينى وبين نبيه فاصل . أبثه من روحى ويبثنى من روحه . نتألم معاً من الحياة ونرقص لها ابتهاجاً . ولا أدرى علة هذا الترابط ! ومن يستطيع أن يحفظ على التحقيق كل سبب يربط بينه وبين مفكر ما ؟ أليست هنالك أسباب مختلفة قد تتآلف وقد تتخالف ، فتمزج هذا المفكر مع عقلك وقلبك ، أولا تزيدك منه إلا نفوراً ؟ وما عسى يكون سر تعلق بنيتشه إلا سر تعلق بالحياة ؟ كانت الحياة عندى ظلمة حالكة فغمرها نيتشه بفجره . كانت الحياة شكا مراً وقلقاً مستحوذاً علىّ فبدل شكى بإيمان ، وقلقى بعزمة لا تتقلقل . كان سفينى مضطربا فى خوض لجج الحياة ، تهم يد الضلال بافتراسه ، فاستنقذه نيتشه وساقه الى منارة النجاة !

ذلك فضل نيتشه علىّ ، وأعظم بهذا الفضل ! وكيف يريد

أولئك الذين لاموني على انكبابي على نيتشه أن أصدف عنه ؟ وانني لواجد فيه علامة من العلامات الواضحة التي تنصبها الحياة لاضلين عن مناهجها ؛ فنيتشه هو علامة فيض الحياة المتفجرة والارادة الصارمة . ولعل أولئك السقماء الذين أتوه فروا من مباضعه القاسية وتعاليمه العنيفة لأنهم يريدون علاجاً يبعث في أعضائهم المشلولة الدفء والسكينة ، وهو إنما يريد أعضاء تبارك الحياة بالعزم والحركة . إنه قد أحرق الملاحات المخدرة للأرجاع قبل أن يقدموا . فان كنت صابراً على احتمال قسوته فتعال الى نيتشه

إن نيتشه ليس يفتقر الى جثث — خالية من الاحساس — يحملها على ظهره ، وإنما هو يريد رفاقاً أحياء هدامين مثله ، قد ادّرعوا الارادة وصادقوا الألم رفيقاً لا سيداً . يقتحمون بارادتهم وصرامتهم كل شيء كالسيل الجارف ؛ لا يصدهم عن غرضهم صاد ، ولا يقف سيرهم حاجز ؛ يمشون فوق القمم وثباً لا يزحفون زحفاً ؛ في نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة ، يفرضونها على الزمان ولا يجد الزمان الى اضعافها سبيلا . هؤلاء الرفاق الأشداء يستطيعون أن يمشوا مع نيتشه ، ويمجدوا الحياة في كل أدوارها ، ويحلقوا فوق آلام الحياة وأفراحها

إن كاتب « فلسفة نيتشه » بالفرنسية يرى في اقتحام نيتشه لبلاده نعمة ، لأنه لا يرى في مظاهرها الاجتماعية مايدل على فيض وحماسة في الناحية المادية والخلقية . وان نيتشه ليبعث هذا الفيض ويخلق هذه الحماسة في الناحيتين . فاذا كانت فرنسا الحية تفتقر الى من يفيض على حياتها حياة ، فكيف بشعوبنا التي قتلها التخاذل بينها !

توجه أنى شئت ؛ فهل أنت واجد الا قطعاناً هائمة على وجوهها ، ورعاة غافلين همهم صفو السمر ، وأواصر مقطوعة ، وتقاليد جامدة ، يتغنى بها القوم حين يريدون الرقص والغناء ، وشباباً مخنثين تناسوا رجولتهم ، وأهملوا رسالتهم ؟ كأنما تلك الراحة الطويلة المريضة قد أورثت أعضاءنا الشلل ، فاذا وثبت فيها الحياة لم تقدر على الحركة . وارم بطرفك أنى شئت فانك واجد هذا الموت الاجتماعي وجمود الفكر

وكأنا لم يرض فينا ريب الدهر حتى أعانه من أعاننا

فأصبح تفكيرنا رياء ، والتظاهر بالتقاليد رياء ، وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب الضعف والعجز ترتديه أمة رضيت لنفسها أن تهوي بدلا من أن تصمد ، وإن اغفال علماء الاجتماع عندنا لهذه الظاهرة الخلقية إغفال فيه جناية لا تغتفر . يجلس مفكرنا في جماعة فيفصل لفكره عشرين وجهاً ، يأتيهم بوجه ويُعرض عنهم بما بقي . ويصلّي أحدنا عشرين ركعة ، يمنح واحدة لله ، ويمنح الباقيات للناس ؛ وهكذا غلب الرياء علينا في كل مظاهر تفكيرنا وتقاليدنا . وإني لأخشى يوماً يرسو فيه الرياء في أنفسنا فيغدو متأصلاً فينا حتى يصبح علامة من العلامات الفارقة لهذه الأمة

هذه هي المظاهر التي غاظت نيتشه يوم أعلن الثورة على الضعف والرياء . وليت شعري من سيفيظه الضعف والرياء في مجتمعنا الحاضر ، فيعلن الثورة عليهما وعلى المرتدين أرديتهما !

إن العقل العربي عقل قوي بنشأته ، صادق بمزنه ، وهو لا يحتاج إلى من يبث فيه معنى القوة والصرامة لأنه قائم عليهما . ولكن جيلنا الحاضر اعتنق الفكرة العربية مجردة من معنى القوة والصرامة ؛ فتشوهت بذلك الرسالة وضاعت معالمها . إن المجتمع العربي يفتقر إلى من يرد عليه هذه الأمانة التي لا يعلم إلا الله سالبها . والمجتمع العربي بعدها غالب عليه الاضطراب والخزي والضلال . فمن يرد عليه أمانته ويعيد إليه صرامته ؟

كنتُ أتلو مواعظ — زرادشت — فأحس أن قوة جديدة أخذت تطغى على قلبي ، وأشعر باضطراب في نفسي جعلني أومن بأن الحياة لا يعسر عليها أن يخرج منها ألف حياة . ولم لا ؟ . كنت أسير معه وهو يهدم خيالات الرياء ، ويضرب التقاليد بعضها ببعض ، فأطرب لشجاعته ، وأعجب بنفسي وأسألها : « هل كان في استطاعتك أن تطأي هذه الأرض لولا هذا النبي ؟ » ، ولكن طربي لم يكن طرباً خالصاً لأنني كنتُ أبغي لمثل هذا النبي الهدام أن يقيم بيننا ليلة واحدة ، تنفذ عينه خلالها إلى قلوبنا الطافحة غشاً وخبثاً ، وقصورنا ومعابدنا المفعمة كذباً ورياء ، فينظف هذه القلوب ويدمر هذه القصور

أين أراك يا زرادشت العرب ؟ ومتى يكون الموعد ؟ فقد اصطلح على إيذائنا كل شيء حتى أنفسنا . تمشي الحياة بنا ونحن ذاهلون ، ويتباهى الغير برجولته الصارمة ونتباهى نحن بالتخنث ، ويستيقظ الفكر في مواطنهم ونحن نضرب حوله السدود ونقيم له الحدود ، نفر من الألم لأنه يضنينا ، ونستجدي الفرح من غيرنا استجداء ؛ يتحرك كل شيء حولنا ونحن لا ترضينا الحركة ولا تستهوينا اليقظة . نقول بالانسانية ونشفق عليها ، وقائلوها لا يملكون من « انسانيتهم » شيئاً . يحسون آلام غيرهم ولا يحسون آلامهم . يشدد غيرنا روح « الذاتية » عندهم ، ونحن نسعى إلى محوها ، كأننا نريد أن نمثل دور الشرق الأول يوم كان

القصص

مأساة من اسخيلوس

ثأر أورست

The Choephoroe (١)

الدرامة الثانية من (الأورستية)

للأستاذ دريني خشبة

خلاصة الدرامة الأولى

« قدم أجاممنون ، ملك آرجوس وقائد الحملة الهيلانية على طروادة ، ابنته إفجينا قرباناً للسماء لتسكن العاصفة وليسخر أسطوله عباب الماء ؛ فأحزن زوجته كليتمنسترا ، وأم الفتاة لا تفكر إلا في ابنتها ، وزادتها وحدتها في قصر البلوبيديه وحشة ، وجعلت من حياتها قفراً مظلماً حتى اتصلت بإيجستوس ابن عم أجاممنون الذي ذبحت إخوته وأطعم أبوهم لحمهم وهو لا يدري ، ثم قتل هو أيضاً ، وكل ذلك بتدبير أتريوس أبي أجاممنون... وهنا تجتمع الأحن وتتضافر الأحقاد ، ثم تنقلب العلاقة إلى حب فعشق دنيء ... فتآمر على قتل أجاممنون حين يعود من طروادة ... ويعود أجاممنون ظافراً وتكون معه كاسندرا ابنة بريام ملك طروادة التي تتنبأ بمقتل الملك ، وبمقتلها أيضاً بيد الملكة وبتدبير إيجستوس ... وتخدع الملكة زوجها فيمشي على بساط الديباج الأحمر فتغضب الآلهة ، لأن المشي على الديباج حق خالص من حقوقها .. ويقتل الملك وتقتل كاسندرا في أثره ... ويستوي إيجستوس على عرش آبائه مشتركاً مع كليتمنسترا في حكم آرجوس رغم سخط الشعب واستياء الجماهير ... »

— ١ —

قتل أجاممنون !

وخلص العرش لإيجستوس ولعشيقته الملكة الفاجرة ، كليتمنسترا . ولكنه كان عرشاً شائكاً ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه فيه اللعنة الأبدية ، وسخط الأرباب وبغض العباد ...

وكانت الأم الآثمة قد أبغضت كل ما يثير في قلبها ذكرى أجاممنون ... وكيف لا تبغضه وها هي ذي حياتها تنقلب فتكون لذاذة خالصة ، وهوى مجرماً ، وغراماً تخامره شهوة التشفي ، وتختلط بغمراته حمى الانتقام ! إذن هي تبغضه ، وهي تغلو في بغضه لأن عيونها في طروادة حملت إليها ما كان من غرامه الشديد بخريسيز إحدى سبايا الحرب ، ثم ولعه الفائق بأختها بريسيز التي خاصم فيها أخيل ؛ ولم يبال أن يهجر الميرميدون حلبة الوغى من أجلها . ولم يكن بحسبه هاتين ، بل عاد من حومة الحرب فاقتحم القصر العتيق الشاهق بعربته الطهمة ، وإلى جانبه خليلة ثالثة من خليلاته الكثيرات ، هي هذه النبية المباركة البائسة ... كاسندرا ، ابنة بريام ، وحبيبة أبوللو في الزمن القديم !

أبغضته كليتمنسترا إذن ، وأبغضت كل ما يثير ذكرياته في فؤادها ... ولو كان أبناؤها الذين حملت بهم من صلبه ! وهي تقسو وتقسو ، وتغلو في قسوتها ، حتى لتأمر بابنها الواحد أورست ، وكان حدثاً لا يعرف من الدنيا إلا أن يصفها أبوه...

(١) أطلقنا على هذه المأساة « ثأر أورست » لأنه خير اسم لها ؛ وترجمة اسمها الحرفي هي « حاملات زقاق الخمر Libotion Bearers » التي لم نجد لها مرادفاً في العربية — وحتى هذه الزقاق في معناها اليوناني لا تسكب إلا فوق القبور أضحية للموتى . فهل من اسم لها عندنا ؟ ؟

يفيض إنسانيته على غيره . . . وقد قتلنا هذا الحب المفرط للغير ، وقد قتلنا هذا الزهد الخامل . تسامى غيرنا فوقنا فهم يريدون أن يعرفوا أنفسهم بعد أن وجدوها ، ونحن تائهون لما نعثر على أنفسنا

تعال أيها النبي أينما كنت ، فهنا كثيرون ممن يرتقبون أوبتك . واحمل مباضعك وابث بنفسك وقلبك وأيقظ أفكارنا وبث فينا الحياة . أعطنا الحياة وخذ منا فديتها . أتريد منا أن نتألم ؟ إننا نتألم ونحتمل الشقاء في سبيل الحياة . شدد شعورنا بالحياة وزدنا إيماناً بها . اهدنا إلى أنفسنا وحببنا فيها فقد علمونا أن نمقتها . تعال استأصل جذور الضعف فينا والذل فقد أكلت أنفسنا الاحشاشات ... تعال ولا تعطنا شيئاً إلا ما نؤدي ثمنه ، فقد أدركنا أن كل ما يُعطى ويوهب رحمة يضر بآخذه . تعال بالإرادة القوة والصرامة ، فكثيرون هنا يرتقبون وصولك . . . والطريق ممهد ، والغاية دانية القطوف « انتهى »

« دير الزور » خليل هنداوي

ونصفها الآخر أمه ... فيُنفى (١) إلى أقصى الأرض ، وليكون بمعزل عن هـذه الحاشية الموبوءة التي قد تثير فيه نخوة الرجولة حين يشتد عوده وينضج قلبه ، فلا يكون له هم إلا الأخذ بثأر أبيه ، والفتك بقاتليه ...

— ٢ —

أما أخته ، أما إلكترا ، فقد بقيت في القصر لتشهد الفصل الأخير من المأساة ... أو لتشهد كل الفصول الدامية التي تتركب منها المأساة ! لقد بقيت على كره منها لتعيش عيشة الرقيق ، وتحيا حياة الخدم ، ولترى إلى أمها تتقلب بين ذراعي عاشقها وملء حضنه ، ولتنعم على خرائب أسرة الأتريه ، ولتبني على أنقاضها القصور والعلالي !

بقيت إلكترا لتبكي دائماً ... ولتبكي دماً !! يا للعذارى !! لقد كانت في ملاعب شبابها تحلم بمُلك وبتاج وبشعب يسجد تحت قدميها ، وهي اليوم تشتهي الموت فلا تجد إليه من سبيل !! لقد كانت بالأمس تمرح بين قلبين يغمرانها بالحب ، وأبوين يلقيانها بالبشاشة ، وهي اليوم لا عزاء لها إلا وقفة باكية بقبر أبيها المقتول ، ووقفة تتصدع لها جوانب نفسها عند مخدع أمها العاشقة ... الفاسقة ... وهل في إحدى الوقفتين عزاء ؟!

بقيت إلكترا ترقب رسول السماء الذي يأخذ بثأر أبيها ، وبقيت لتكون رائد هذا الرسول يوم يجيء . ولم يكن لها من ولي ولا حبيب في هذا القصر الشاهق العتيق إلا هذه العجوز الشمطاء الطيبة ، مرضعة أورست ، التي بكت أحر البكاء وآلمه وأوجعه يوم أخذوا منها ولدها — كما كانت تدعوه — ليُنفى في أقصى الأرض

لقد كانت هذه العجوز الشمطاء امرأة ثاقبة الفكر ، رحبة الصدر ، شديدة الإيمان في السماء ! فكانت تواسي إلكترا وتأسو جراحاتها ، وتمنيها الأماني ، وتزخرف لها الآمال ، وتذكر لها أن عين سيد الأولمب الساهرة لن تغفل عن لؤماء قصر الـ (پلوپيديه) وأنها ترعى فتى القصر في منفاه ، حتى إذا آنست فيه استواءً أرسلته كالصاعقة على المجرمين ؛ فنقض بنيانهم ، وزلزل أركانهم ، وانتقم لأجاممنون !

(١) ذكر سوفوكليس في درامته الخالدة Electra أن إلكترا نفسها هي التي أنقذت أخاها وأرسلته مع خادم أمين ليتربى في كنف جار كريم من رعايا أبيها — ويبدو لنا أن رواية سوفوكليس أقرب إلى الحقيقة وسنعرض لها في حينها

وكان قاهر طروادة قد جلب معه غير كاسندرا عدداً وافراً من السبايا الطرواديات ، فاستطاعت المرضعة العاقلة ، المحنكة ، أن تجعل منهن جنداً لها (١) ، وحاشية مخلصة لفتاتها المعذبة ، يخففن من برحائها ، ويكن لها أملاً كلما عزها الأهل

ومضت سنوات عشر فسقطت طروادة

ومضت سنوات عشر بعد مقتل أجاممنون

واشتد ساعد أورست ، وعاد ليبطش بالقتلة السفاكين

وبدأت المأساة الثانية

— ٣ —

لمن هذه الأشباح السادرة التي تهرول بين المقابر مُهطِعة إلى رمس أجاممنون ؟

إنها تختلط بغبشة الصباح وتمتزج صُعداؤها بأنفاسه ، وإنها لتضمر في قلوبها لظى ينعكس في ذاك الشفق الذي يضطرم به الشرق ... حيث يسبح البنفسج في حمرة الدم !!

آه ! إنه شاب غرانق ، سمهري ، مجلل بالسواد ، يجثو فوق الثرى ... يبكي ويصلي !! وإن بالقرب منه لصديقاً ينتظره ... ويذرف دموعه من أجله ... فيا للمودة في الرزء ، ويا للإخلاص في الشدائد !! اسمع إلى الشاب المحزون : يخاطب تمثال هرمز النصفي المنتصب فوق القبور ، ثم يكلم من بالقبور :

— « يا هرمز اللطيف ، يا إله الأرواح وحاديها إلى هيدز ، أيها الساهر على هذه المقبرة وعلى كل مقبرة ... العون العون ! »

ويضع خصلتين من الشعر على قبر أبيه ، ويقول : « هأنذا أضع خصلة من الشعر هنا تحية لأيناخوس الذي رويت بمائه ، وترعرعت على شطآنه ... وأخرى تحية للموتى ... يا رحمتا لك يا أبي ! هكذا شاءت قسوة المقادير ألا أكون قريباً منك فأذرف عبرتي الطاهرة فوق ثراك ، وأروي الصفاح المركوم فوق جثمانك بالغيث الغزير الذي أرسلته من أجلك في دار غربتي ! »

— ٤ —

ويقلب وجهه في بنفسج الشرق المموه بالقرمز ، فيلمح نسوة يتعثرن في سبيلهن بين المقابر ، ميممات شطر قبر أبيه ! فيوجس في نفسه خيفة ، ويحسب أن جديداً من نكد الحياة قد ألم بالبقية الباقية من دم أجاممنون في الـ (پلوپيديه !)

ولكنه سرعان ما يعرف بينهن أخته ! أخته بعينها ! هي !

(١) خورس هذه المأساة من هؤلاء السبايا ، فهن إذن منشدات — لا منشدين — كما في المأساة الأولى

هو [illegible] ! وهى تحمل كالأخريات زِقّاً صغيرا وتقبل قُدُماً ... سمرة ...

— « لم أقبلن إذن فى هذه البكرة المقرورة ؟ يالله ! العون ياسيد الأولب ! صديق پيلاديز ! هلم نختبىء لنرى ! »

ويختبئ أورست وصديقه پيلاديز ، وتقبل النسوة فى إثر إلكترا الواهية التى حطم قلبها الحزن ، وأوهن جسمها الأسى ... ويأخذن فى نشيد باك يتفجر فى موسيقاه الدم ... ويمتزج شجوه بالدموع ... ويشرن إلى القبور وبينها هذا القبر ، ثم يتلفتن فيرين القصور النائية وفوقها هذا القصر ! ... فيرثين لآرجوس ويرثين للفتاة المحزونة الواقفة بينهن ... ويصلن ترنيمهن ... فيذكرن نأيهن الذى شط واستطال عن الأوطان ويذكرن هذه الشباك المحكمة من الجواسيس والعسس المنتشرة فوق آرجوس ، تلتقط الأبرياء والمظلومين ليروى من دمائهم إيجستوس ، ولتجهز من شبابهم النضر ضحايا لفسق الملكة ! ...

وتتكلم إلكترا ، بعد أن تذرف عبرة أو عبرتين ، فتستشير المنشدات فيما أمرتها أمها الآثمة أن تفعل بزقاق الخمر ... فى هذا المكان القفر ... إلا من الذكريات !

— « إذا صببت قربانى الخمرى ، فماذا أقول ؟ هل أقول « قربانا يا أبى ، من زوجتك التى سفكت دمك غير راحمة ، نشداناً للذة ، وحرصا مجرماً للهوى ؟ » أم أقول « لتهدأى يا رفات ! ولترضىْ بالغدْرة الكبرى التى دُبرت لك ، فلا تنتفضى تحت أطباق الثرى لترسلى الويل على الظالمين ؟ » ، أم أصبها وألقى الزقاق ثم أنثنى كأن ليس بى من ذلك النائم حزن مقيم ووجد دفين ! » تكلمن بحق مودتى عليكن ، فنحن فى الهم شركاء ، ولا تحبسن محض النصح عن فتاتكن ، ولا تخشين فى البلاط الدنس أحدا ، فالأقدار قد شاءت أن تبسط كفها القاسية فى هذه المأساة على رقاب السادة وأعناق العبيد ، حتى يكونوا سواسية ... »

— حبًّا يا أميرة وطواعية ... إن قبر أبيك يفرض علينا النصح لك »

— « إذن ... ! ! »

— « إذن فاضرعى أن يسمع الأصدقاء لصلاتك ، وتصغى قلوبهم لتوسلاتك ! »

« الأصدقاء ؟ ! أى أصدقاء يعنيهم ما أصلى وما أتوسل ؟ »

— « أنت ، وذلك النائى عن هذه الديار ! »

— « من تعنين بحق الآلهة عليكن ؟ »

— « أورست !! أخاك يا أميرة ! ! صلى من أجله واضرعى للآلهة أن تسعفك به ! »

— « آه ! للآلهة دَرُّكنّ إذن ! »

— « ثم فكرى فى هذا الدم المسفوك ، وفى أصحابه الأشرار الفجرة ! »

— « وكيف ؟ ... ... »

— « قد ترسل الآلهة نقمتها ... »

— « وله ! وعلى رأس من ؟ »

— « على رؤوس المجرمين ! »

« ويلاه ! المجرمين ؟ ! ومن هم المجرمون ؟ ... يا سماء ! ... يا سيد الأولب ! رحماك يا إلهى ! اللهم ارع أخى يثأر لأبى ... من ... ممن يا عذارى اليوم ؟ ! ممن ؟ آه ياروح أبى ! رفرفى فى سمواتك ! وانتفضى فى هيدز ! وتعالىْ فأرسلى أورست يثأر لك ! »

وتترنم المنشدات ، وتأخذ إلكترا فى صب الخمر

— « يا للآلهة ! ماذا أجد ؟ خصلتان من الشعر ؟ »

— « خصلتان من الشعر ؟ من رأس من يا ترى ؟ »

وتضع الشعر عند رأسها فيبدو الشبه كبيراً ، فتنزعج ...

— « ماذا بك ؟ فيم تمتقعين هكذا ؟ ... »

— « إنهما من رأسه ! ... من رأسه هو ! من رأس أخى ؟ »

— « ربما يا أميرة ! ولكن ! كيف جازف بنفسه فى هذه البرية الموحشة ؟ من أرسله ؟ »

وتنظر إلكترا حول المقبرة فترى آثار أقدام ...

— « وما هذا أيضاً ؟ ... آثار أقدام ! ... لا ريب إذن ! إنها آثاره ياعذارى !

ولكن ! ! ... إنها آثار رجلين لا رجل واحد ! ...

آه ... قد يكون صديقا ... ياسماء ! ... »

ثم يظهر أورست فجأة ، ويقول :

— « إذن ! قد سمعت السماء صلاتك !

فتنزعج إلكترا ، وتدهش المنشدات ...

— « من ! ! من الرجل ؟ ... »

— « أنا ؟ أنا هو ؟ ... أنا من كنت تهتفين باسمه الآن ! »

— « أوه ! أتخدعنا ياصاح ؟ إذهب ! وحسبنا ما نحن فيه ! »

— « أخدعك ؟ إذن أخدع نفسى !

— « سخرية . . . إذهب ، إذهب ! »

— « سخرية . . .؟ عن ؟ بى ؟ . . . أسخر بنفسى ؟ »

— « أفأنت هو حقاً ؟ . . .

— « . . . ؟؟ . . . »

ويبكى أورست !

— « . . . ؟ أورست ؟ أخى ؟ »

— « . . . أفى مرية أنت ؟ إلكترا ؟ . . . خذى هذا الشعر أيضاً ... خذى ! هاتى رأسك وانظرى ! ... ... ولكن أنظرى أيضاً ! أليس هذا هو الجلباب نفسه الذى خاطته يداك ؟ إنه هو ... اللحمة والسدى ! ! والصور المطرّزة ! ... لا ... لا ... لا يقتلك فرحك ! ليس لنا الآن أن نفرح بهذا اللقاء المفاجىء بين يدى ذلك القبر المنفرد ! إن لنا لساعة ! ... إ كبحى جماحك ، وهيمنى على فؤادك ! فلنا أعداء ... وهم أقرب الناس إلينا ... »

— ٥ —

ولم يكذب أورست ، فلقد كاد الفرح يقتل إلكترا ؟ إنها لم تره منذ عشرين سنة ؟ ثم ... أليس هو الآن بين يديها بعد طول انتظار ... وأحلام ... وأمانى ؟ ... أو لم تكن هذه اللحظة فقط ، تصلى للسماء ، وتضرع للآلهة ، أن ترسل لها أورست ؟ أليست السماء قد صغت ، والآلهة قد استجابت ؟

لقد كانت أمها رأت فى نومها حلماً مزعجاً ممضاً ... رأت أنها تلد أفعى هائلة ، ذات أنياب ! وأنها تأخذها فتضمها إلى صدرها ... يا للهول ! إن الملكة تنتفض من نومها مذهولة مروّعة ! ... وإنها لتذكر أجاممنون فجأة ... تذكره بعد عشرين سنة ! وتذكر أورست المنفى بأمرها فى أقصى الأرض ! وإنها لتهب من السرير الديباجى الوثير ... وتنثر ذراعى إيجستوس الجبارتين الملفوفتين حول خصرها ! ... وإنها لتنطلق فى القصر مذعورة فى أبهائه ... إلى ... بهو العبيد والخدم ... بهو العذارى الطروادیات ، حيث تنام إلكترا على فراش من الشوك ، تفكر فى عشرين سنة مملوءة بالدم ... مملوءة بالدم ... مملوءة بالدم ...

وإن الملكة لتوقظها من أحلامها ، وتأمرها ، وسائر الطروادیات ، فينطلقن إلى المقابر بزقاق الخمر ، يسقين الثرى ، ويقربن إلى أجاممنون ... ويرضين روحه الغضبى ! !

ولكن ، ولكن الصلاة تنقلب ، والقربان يصعد إلى السماء فيغضب الآلهة ، فترسل أورست ، ويتحقق الحلم الأسود ... الأفعى ! الأفعى ذات الأنياب ، يتدفق منها السم الزعاف ! !

ويصليان لزيوس صلاة حارة ، ويضرعان إليه أن يكون معهما فيما هما قادمان عليه من ذلك الهول الأكبر ... فاذا ارتفع صوتهما ، وعلا جُؤارُهما ، تقدمت رئيسة المنشدات فابتهلت إليهما أن يتكلما همساً — « فقد تسمعكما أذن شر فيفشل سعيكما وتذهب ريحكما ، ولا تقوم لكما قائمة من بعد ! » فيطمئنها أورست — « ليفرخ روعك أيتها السيدة الصالحة ! فلقد أرسلنى أبوللو لآخذ بثأر أبى ، فان لم أفعل ، فليجمد دمى حتى يكون كالثلج فى عروقى ! لا بد أن يشربا بالكأس التى أفرغاها فى فم هذا الثاوى هنا ... يتطلع إلى ما يفعل له ابناه ، وآخر أثارة منه فى هذه الحياة ! »

ويتقدم الفتى والفتاة فيصليان على قبر أبيهما صلاة حارة ، ثم يعطيانه موثقاً صادقاً أن يثأرا له ، ولو كلفهما الأنهار له هذه الصبابات من الدم التى أبقى عليها الأسى فى عروقهما

ويلتمسان منه العون ، ويضرعان إلى السماء أن تكون معهما ، والى الآلهة أن تسدد خُطاها

(البقية فى العدد القادم) دريني خشبه

البريد الأدبى

وفاة الأستاذ جميل صدقى الزهاوى



كانت أعراض الشيخوخة وأزمات الداء قد أخذت منذ حين تصارع فى غير هوادة حيوية القلب الفتى والعصب الشاعر فى هيكل الزهاوى ، وكان الزهاوى يأبى أن يهادن الزمن الغلاب ، فهو حركة فكرية دائبة وجملة عصبية ثائرة ، لا يفتر ليله عن الفكر ، ولا يكل نهاره من الحديث ؛ وحديثه المتصل فى قصر الالهام ، وفى دار الدُّفترى ، وفى مقهى (أمين) إذابة لجسمه وإحراق لعصبه ، لأنه لا ينفك منفعلا بشعوره متأثراً بطبعه . وحياة الزهاوى كلها تفكير فى قصيدة ، أو قراءة فى كتاب ، أو محاضرة فى حديث

ذهب الزهاوى يوم الأحد الماضى متأخراً على غير عادته إلى قهوته المختارة فى منعطف شارع خالد بن الوليد ببغداد ، وكان أصدقاؤه وتلاميذه وسماره قد تحلقوا حول مقعده الخالى ينتظرون كاهن أبوللو وشاعر الفكر الحديث ؛ دخل متوكئاً على ذراع خادمه محمود ، وهو يبسم لجلاسه بسمة السراج الفانى والأمل الشاحب ؛ ثم شكا بعد شوط من الحديث الممتع ألماً فى أعلى كتفه الأيمن عزاه إلى كثرة ما كتب ليلة الأمس ، إذ قضى ليله ينظم قصيدة أخرى يحيى بها مصر على لسان الوفد النيابى الذى سيزورها عما قريب ؛ ثم اجتزأ بأكل قليل من الكمأة ولم يعد إلى الغداء فى البيت ، واقترح على صديقه الأستاذ بحرى صاحب العقاب أن يذهبا إلى السينما فيشاهدا فلماً مصرياً ورد بغداد منذ قريب ، ولكن الألم اشتد بَرْحه والقلب زاد وجيبه ؛ فأقبل على صديقه وقال بلهجته الخاصة : « يا أفندم ! إن هذا الألم يكاد يقضى علىّ ، وهذه النوبات العصبية تنهك قواى .. يا أرحم الراحمين انقذنى من هذه الآلام ! » ثم رغب أن يعود إلى داره ؛ ولم يكد يدخلها حتى أحس بالداء يتسع وبالنفَس يضيق ، فدعوا اليه الطبيب حوالى الساعة الرابعة بعد ظهر الأحد ولكنه كان قد فارق الحياة !

* * *

ريعت بغداد بالنبأ المفاجىء والخبر الأليم ، وملكها الجزع على لسانها الذى أخرسه الردى ، وقلبها الذى أسكته القدر ، وتقاطر الناس على دار الشاعر الهامد يتقدمهم الوزراء والعلماء والنواب والأعيان والقادة ؛ وفى الوقت المحدد للجنازة من ظهر يوم الاثنين خرج النعش محمولاً على أكتاف عشرين طالباً من طلاب الفتوة فوضعوه فى السيارة ، وجلس من خلفها الشاعران الكبيران رضا الشبيبى ومعروف الرصافى ، ومن أمامها اثنان من أقارب الفقيد . فسارت تحيط بها السريتان الأولى والثانية من الفوج الأول ، تتقدمها فرق الجوالة وفرق الفتوة للمدارس الثانوية والعالية ودور المعلمين ومع كل فرقة إكليلها ، ويمشى وراءها الوزراء الحاليون والسابقون والمديرون العامون وكبار الضباط ووجوه البلاد وجماهير الشعب حتى بلغت الأعظمية فصلوا عليها فى مسجد الامام أبى حنيفة ؛ ثم حملتها فرقة من فرق الفتوة إلى مرقدها الأخير فى باحة « دار العلوم العربية » على مقربة من ضريح الامام الأعظم . تغمد الله شاعر العروبة بالرحمة وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء

ذلك خبر تلقيناه بالطيارة آخر الوقت فسجلناه عن الرجل الذى مات ، أما الزهاوى الصديق الشاعر الفيلسوف ، فسنعود اليه ثم نعود

ندوة الزهاوى

روت (البلاد) أن رجال الأدب فى بغداد أبدوا رغبتهم الملحة فى أن تجعل الحكومة دار الأستاذ الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى (ندوة للأدباء) فى بغداد ، واقترح أحدهم بأن تقوم الحكومة بشراء هذه الدار وترتيبها وتنسيق أثاثها بما فيها كتب الأستاذ ومخطوطاته ودواوينه على غرار دار (شكسبير) فى انكلترا ، ودار (جوته) فى ألمانيا ، و (فكتور هوجو) فى فرنسا ؛ وليس ذلك كثيراً على وفاء العراق ، ولا غريباً من حكومة الهاشمى

تأبين الزهاوى

كذلك روت الجريدة أن جمهرة من كبار رجالات العاصمة وأدبائها اعتزموا اقامة حفلة تأبينية كبرى لفقيد العربية ، وشيخ القريض الزهاوى فى يوم أربعينه ، وستكون الحفلة تحت اشراف الدولة ، وسيدعى لها كبار الأدباء والشعراء فى الشرق العربى

أسبوع المتنبى فى الجامعة المصرية

حالت الحوائل السياسية المعروفة دون اقامة هذا الأسبوع فى الموعد الذى حدد له من قبل ، وقد استقر اليوم قرار كلية الآداب على أن يقوم فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية فى الساعة السادسة من مساء الأيام الآتية على النحو الآتى :

الثلاثاء ١٠ مارس : خطبة الافتتاح لصاحب السعادة الأستاذ مدير الجامعة ، و « المتنبى شاباً » للدكتور طه حسين

الأربعاء ١١ مارس : (سيف الدولة الحمدانى) للأستاذ عبد الحميد العبادى ، ثم (المتنبى وسيف الدولة) للأستاذ أحمد أمين

الخميس ١٢ مارس : (كافور الأخشيدى) للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ثم (المتنبى فى مصر) للأستاذ أحمد الشايب

السبت ١٤ مارس : (المتنبى من خروجه من مصر إلى وفاته) الأستاذ مصطفى السقا ، ثم (أسلوب المتنبى) للأستاذ عبد الوهاب حموده

الاثنين ١٦ مارس : (المتنبى والنحاة) الأستاذ ابراهيم مصطفى ، ثم (فلسفة المتنبى) للأستاذ مصطفى عبد الرازق

الثلاثاء ١٧ مارس : (مكانة المتنبى فى الأدب العربى) للدكتور طه حسين

١ — قبر أبى عبيدة عامر بن الجراح . ٢ — الرقيم

قرأت فى الصفحة ٣٧٦ من المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية التى يقوم بترجمتها لفيف من شباب مصر الناهض ، أن أبا عبيدة عامر بن الجراح توفى بالطاعون عام ١٨ﻫ فى أمواس وأن قبره بجامع الجراح فى دمشق

والراجح أن أبا عبيدة توفى فى شرق الأردن بالطاعون الذى ينسب الى عمواس (لا أمواس كما ترجمت خطأ) وعمواس هذه قرية تقع بين القدس ويافا . ولعل وباء الطاعون تفشى فيها أولاً ثم انتشر فى جميع البلاد السورية فمات به خلق كثير منهم أمين الأمة ومعاذ بن جبل وضرار بن الأزور وشرحبيل بن حسنه ويزيد بن أبى سفيان . ودفنوا جميعاً فى غور الأردن ، ولا تزال قبورهم ماثلة للعيان عدا قبر يزيد الذى اندثرت معالمه ولم يبق له أثر

وقد رمم ضريح أبى عبيدة فى عهد السلطان بيبرس كما جاء فى الكتابة المنقوشة عليه ، وهذه صورة عنها :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« وأمر بانشاء هذه القبة المباركة على ضريح أبى عبيدة الجراح رضى الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس ابن عبد الله قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير ممل تونين من حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزى الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين . وذلك بنظر الأمير الأعز الأجل الكبير نسله ناصر الدين الجامنكلى الظاهرى السعدى نائب مملكة عجلون المحروسة فى ذى الحجة سنة ستمئة وسبعة وخمسون »

***

وجاء فى الصفحة ٢٤٣ من المجلد الثانى من دائرة المعارف الاسلامية أيضاً أن الرقيم « قد تكون جهة فى شرق الأردن قريبة من عمان »

أقول قد تكون الرقيم هذه قرية الرجيب التى تقع الى الشرق من عمان على مسافة تسعة كيلو مترات منها ، لأن البدو كثيراً ما يقلبون القاف جيما والميم باء

ويوجد فى هذه القرية مغاور عديدة نمت بجوارها أشجار برية قديمة العهد . والسبب فى قدمها هو احترام البدو لها

وت[illegible]ظمها لاعتقادهم أنها كانت تظلل الكهف الذي نام فيه ال[illegible]مذكورون في القرآن ولبثوا فيه ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا

ويقدس البدو والفلاحون هذه الكهوف كتقديسهم لأي مزار أو مقام

والرقيم من المنازل التي كان يرتادها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك للهو والصيد، وفيه يقول الشاعر:

أمير المؤمنين اليك تهوى ... على البخت الصلادم والعجوم
فكم غادرت دونك من جهيض ... ومن نعل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيداً ... بأكناف الموقر والرقيم
تهنئه الوفود إذا أتوه ... بنصر الله والملك العظيم

والموقر المذكور بجانب الرقيم هو قصر أو حصن أموي — ولعله من بناء يزيد — يقع على مقربة من الرقيم (أو الرجيب)

وقد ورد في أحسن التقاسيم للمقدسي أن الرقيم « قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية فيها مغارة، لها بابان صغير وكبير، ويزعمون أن من دخل الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير. وفي المغارة ثلاثة قبور تسلسل لنا من أخبارها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينما نفر ثلاثة يتماشون إذ أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت الى فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم »

وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على ما نشاهده اليوم في قرية الرجيب، وما نسمعه من القصص والأساطير التي تروى عن كهوفها ومغاورها؟

(عمان) بهاء الدين طوقان

مديرية أسوان

قال الأديب رشوان احمد في مقاله المنشور في العدد الماضي من الرسالة: « إن الملك منوسوفيس (وهو الملك الثاني عشر من ملوك الأسرة السادسة) أرسل القائد هرخف إلى بلاد بنت » ظناً منه أوخطأ في مصدر النقل أن هذه البلاد جنوب صعيد مصر لقوله « وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أرسل امرتسن الأول ثاني ملوك هذه الأسرة القائد هونو بطريق قفط والقصير لجباية الجزية ... » والمعروف عن بلاد بنت أنها بلاد الفينيقيين ومنها صيدا وصور

أما هجرة المصريين في عهد قلاقل الأسرة الخامسة عشرة فقد كانت إلى نبتة أونباطي وهي عاصمة بلاد النوبة لا أتيوبيا، ولم تكن مملكة أتيوبيا مجاورة للمملكة المصرية إلا بعد غزوة ملوك مصر للنوبة والكوش، وقد غزا بعنخي ملك النوبة مصر أيام حكومة الآشوريين، وهذه الغزوة هي التي يخطئ فيها بعض المؤرخين فيسمونها غزوة الزنوج لمصر

وقد ذكر أن « رمسيس غزا بلاد أتيوبيا وأقام هيكلا عند كلابشة، ويسمى بيت الولي عند سكان كلابشة » ولكن المعروف أن رمسيس الثاني غزا النوبة وسطر حروبه وانتصاراته على معبد أبي سمبل، وأما كلابشة وهيكلها المسمى بيت الوالي « لا بيت الولي » فيقال إن الهيكل من عمل امرتسن الثاني.

ولم تكن كلابشة وأبو سمبل تابعتين لأتيوبيا ولا لكوش في وقت ما، وما زالتا من القرى النوبية، وهما اليوم من أعمال مركز الدر، فكلابشة في أقصى الشمال وأبو سمبل في أقصى الجنوب

والكاتب جغرافي ولكنه لم يلتفت إلى تقسيم وادي النيل في كلامه التاريخي، فالمعروف جغرافياً أن مصر جنوبها النوبة، وجنوب النوبة السودان، وفي الجنوب الشرقي من السودان أتيوبيا أو الحبشة كما تسمى الآن

ولم يذكر غزوة على بابا ملك النوبة أيام عنبسة آخر ولاة العباسيين لمصر واستيلائه على صعيد مصر، وأما الفنج فقد كان عاصمة ملكهم في سنار (لا في سناد) وقد تكونت مملكة الفنج في حوض النيل الأزرق واستولت على جزء من أتيوبيا، والجزء الجنوبي من النوبة

أما حكومة الكشاف التي بدأت في بلاد النوبة بعد فتح السلطان سليم، فقد كان الحكام من الأتراك؛ وأول من تولى حكم النوبة وخاصة الاقليم الممتد من الشلال الأول حتى آخر مديرية دنقلة كان إلبانياً يدعى حسن قوسه وهو رأس أسرة الكشاف الحالية بمركز الدر، ولم يتعرض محمد على باشا لاحفاده في حكمهم عند غزوته للسودان، لأن الحاكم قدم له فروض التابعية وساعده على نقل الجيوش إلى السودان، وقد رضي بتقديم الضرائب لوالي مصر على أن يعفى أبناء الاقليم من الجندية، وكان ذلك حتى اليوم، ولكن نفوذ الحكام أخذ يتلاشى إلى أن قضي على سلطة الكاشف الروحية في أواخر أيام توفيق باشا. أما معاهدة ١٨٩٩ فتنص على أن حدود مصر هي « فرس » جنوب حلفا بقليل، وما فرس إلا جزيرة في عرض النهر، ولكن الانجليز وضعوا حدهم أمام فرس على ضفتي النيل الشرقية والغربية مع أن هذا الحد ليس بفاصل طبيعي

يوسف سميع